زهير أبو سعد

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the author Zohir Abu Saad.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الكاتب زهير أبو سعد.

عنوان الكتاب: منافقون بأتكيت
اسم المؤلف: زهير أبو سعد
تصميم الغلاف: معتزّ عدنان العزّام
تدقيق لغوي: عبدالله تحسين علي
مقدمة: شروق المسالخي

الطبعة الأولى 2018 م

© جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للكاتب زهير أبو سعد

رقم الإيداع : 2018/7428
Literar-Mechana

طُبع في مطبعة Expressprint

رواية

منافقون بأتكيت

زهير أبو سعد

مقدمة

الكاتب: زهير أبوسعد

العنوان: منافقون بأتيكت

عذراً أيها الورق الأبيض ولنصاعك الذي لوثناه بذكرهم لكن منافقينا أجبروا الكاتب زهير على أن يصب أحرفه عليك ويسلط ضوء حبره الصافي بمجهر قلمه ليرينا صورتهم التي لطالما رأيناهم فيها بأبهى صورة ملونة، مزركشة بروعاتهم وفي الحقيقة ليست إلا لوحات مروعة منقوشة بالفحم الأسود كنفوسهم البالية، يا إلهي كم خضعنا لغشاوة الأعين وكم خدعتنا الوجوه المقنة بالتقى والورع، عزيزي القارئ أنت أيها الطيب المسكين، أصحاب العيش البسيط والقلوب النقية عندما تقرأ هذا الكتاب ضع بجانبك مناديل وخذ احتياطك لأن رائحة منافقينا نتنة قذرة سوف تشعرك بالتقيؤ فور معرفتك عنهم، فإن هيروشيما النفاق اجتاحت هذا العالم وتغلغلت في النفوس المريضة من جميع طبقات المجتمع، لقد ذكر كاتبنا طبقات النفاق البرجوازية

والمخملية فإنهم يتعاملون مع نفاقهم بحرفية، إليك بعض النماذج منها فإن من خلال هذه الرواية العريقة بحقيقتها ستعرف كم خدعت بهم وعن كمية القذارة الراكنة تحت عباءاتهم التي يرعاها نفاقهم كالتجار وأصحاب الملاحات الذين اصتفوا على أعتاب نفاقهم بنية الرزق والدكاترة (ملائكة الرحمة) والمقصود بملائكة الرحمة أي الجزارين الذين يسلخون جلدك عن عظمك، وعظامك هذه إذا يستفاد منها فعلى الرحب والسعة أيضاً، والذين يزوجون بناتهم على شيك مقدر بسعر يليق بهذا النفاق، والكتاب البارين لكلماتهم الكاذبة وخلف الكواليس عقوق مؤرشفة باسمهم الى أن تنزل بالسلم درجة درجة ويبدأ فكرك وقلبك بالعويل منهم، ومن أمة نفتخر بها يوم تحشد الأمم لقد ذكرنا الكاتب زهير وعاد بنا الى الزمن الى تاريخ ٦٠٠ للميلاد عندما خاطب خطيب العرب (قس بن ساعدة الأيادي) وألقى على الناس كلماته في سوق عكاظ حيث قال: أيها الناس! اسمعوا وعوا، إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. ليل داج، ونهار ساج،.....

أين الآباء والأجداد ، أين الفراعنة الشداد، ألم يكونوا أكثر منكم مالاً وأطول آجالاً؟ طحنهم الدهر بكلكله، ومزقهم بتطاوله.

كان هذا الخطيب يرشد الناس ويعظهم ويذكرهم بالآخرة وها هو اليوم كاتبنا بعراقة قلمه يقف على منبر عكاظ فكره ويخاطب فراعنة هذا المجتمع ويقول لهم ها هو نفاقكم لا ينفعكم ولا مالكم يجمل صورتكم فإن قذارتكم مكشوفة مكشوفة، والنفاق أخ الشرك ومن أشرك فقد كفر.

شروق المسالخي

الإهداء

إلى من جعلتني أنصف ذاتي أمام الورق ، فجعلتني أخرج جل خوفي ، و أكتب ما شهدته من نفاق بين أشباه الكُتاب و الأدباء ، إلى أستاذتي :

نوال السعداوي

نَحنُ .. و أنتُم ..

لا إرادياً نَستَطيع أن نُقسّم أنفُسنَا بالتَسلسُل الطَبقي و العُنصُري و الفكري و الطَائفي و البريستيجي ، لأنَك بالأحرى تَمتلك حُرية الاختيار كمَا تَظُن ..

و لكن يا حبيبي أرح حُرية اختيارك جَانباً و رَكز بكُتلة العُقد المُثيرة للجَدل التي تقتاتُ عَليكَ و تَقتَاتَ منهَا ، افتح بطونهَا و حَاول اكتشاف تلكَ الآلة التي رَاهنَ عَليهَا كُثبان كَثير من الجَمَاجم البَشَرية !!

هَا، ماذَا وَجدتَ ؟ ..

ها .. ها .. ها .. أعرف بأنَك لم تَجد أحداً سواكَ ..

التَجارُب هُنَا تَتَوقفُ عندما تصطدم بالفَارغين من الحَياة و حتى من الآخرة ، وحوشٌ على هَيئات بشَر تَتَناحَرُ على الوَجود ، مع أنَ الوَجود عبارة عن مسَاحة وَاسعة تَتَسعُ لجَميع من فَيهَا من بَشَر و حَيوانَات و حَجر ..

لمَاذا هَذا الصراع ، و من أَجل مَاذَا ؟!

كُلنَا نَعرفُ بأنَ النهَاية إلى الفنَاء ، لن تَنفَعُكم عَمائمكُم بكَافة أنواع قُمَاشهَا و ألوَانهَا و من أي أرض أتَيتُم بهَا ، و لا حَتى طيلسانكم و جدائلكُم و صُلبانَكُم و جُببكُم ، و لا حَتى رَبطَات أعناقكُم و لا سَاعَاتكمُ ذَات المَاركَات العَالمية أو المَخفية ، و لا حَتى شَركَاتكمُ الحَلال أو الحَرام أو سَياراتكم المَموهة أو نَظارَاتكم التي تَخفونَ خَلفهَا عيونكُم التي سَتلتهمها الديدان ..

سَأهمسُ في طَبلة أُذنكَ هَمسَة ، و أنتَ حُر طَبعاً ، حُرية مُطَلقة، أخذتَ بهَذا الكَلام أم لم تَأخُذ فَالذي سيُكتب سَوفَ يحَدُث لا مَحَالة :

أنتَ و جَمالكَ أو قُبحكَ و كَرشكَ و مَا أكلتَ و ما أفرغت و مَا جَنَيتَ و مَا سَرقتَ و مَا نَهبتَ و ما جَمعت و ما وَزعت لست الا وَجبة ديلفري في مَطاعم التُراب ، هُنَاك ينَتظرُكَ جُنود اللحود بكَافة أدواتهم البَسيطة لكي يَسنونَ مُعداتهم البَسيطة و يَلتهَمونَ ألذَّ وَجبة لَهُم ، لحَمكَ الشَهي يا هَذا ..

جَبارٌ و خوار فَوقَ الأرض و تَحتهَا يُقامُ لإنزالك عُرساً بروائحكَ الكَريهة يُدعَى إليكَ كُل من ينَهشُ لحماً بَشَرياً..

سَتتفجر سُرتكَ السرية التي تَتَوسَطُ بَطنكَ النَحيل أو بَطنكَ المُتَدلي بالقاَذورات و يَخرجُ منَها مَولود الدود الذي سَيثقُبُ جلدكَ و يسَلخُ لحمكَ عن عَظمكَ ، و تَعود ذَاكَ العَاري من كُل شَيء ..

في الحَقيقة هَذا أنتَ بالضَبط ..

لا تُهمني أرقامكَ البَنكية ، و لا رُتَبتكَ الدولية ، و لا ثَرواتكَ المَنقولة ، و لا عُروشكَ المَحمولة ، و لا كُل هَذا النَقص الذي تُرمِمُ به ضَعفكَ أمَام الآخرين من بَشَر في الأسَاس هُم إخوة لكَ ..

في الحَقيقة أنتَ كُلكَ على بَعضكَ لا تُهمني ..

فَإن تَحاول و لو لمَرة وَاحدة أن تُعيد هرمونَات إنسَانيتكَ إلى قَنواتكَ العَاطفية، لَعمري ان هَذا لَشَيء عَظيم ، جَميل أن تُحَاول و تَصطنع التَواضع و لكن بَشَرط أن لا تَكُون:

مُنَافقاً بأتكيت ..

لا تُدَافع عن حُقوق شُهداء وَطنكَ و أنتَ تَجلسُ في حُضن العَدو ، كُن شَريفاً و لو لمَرة وَاحدة في حَياتكَ ، لا تَملئ

الدُنيا نُباحاً على منَابر الله و تَخطب عن الجُوع و كرشُكَ أثقلُ من جسَدكَ ، كُن جَائعاً و لو لمَرة وَاحدة ، لا تُدافع عن حُقوق الأطفال و ٨٠ % من ثَروتكَ صَنعها الأطفال الذين وَظفتَهُم في معاملكَ و مَصَانعكَ ، كُن بريئاً و لو لمَرة وَحدة في ضَميركَ ، لا تَنصَحني بترك مَا تَراهُ حَراماً و أنتَ ظَالم لا تَتَقبل الآخر حَتى لو كَانَ أحد أبنَاء بَيتكَ ، كُن عَادلاً و لو لمَرة واحدة في هَذه الحَياة ..

في الحَقيقة أحبُ أن أراكَ مُنَافقاً ، و لكن أكرهُ ذَاكَ اللون الرمَادي عندما تَتَحدث و تَنصَح و تَكتُب و تَنبح. نعم، جميلٌ أنتَ بكُل أُبهَتكَ الكَاذَبة و لكني أستَقذرُ رَائحة فَمكَ العَفنة عندما تُطرُبنَا بالأمر و النَهي ، نعم أنَيق جداً ببدلتكَ الرسمية و سَاعَتكَ السويسرية و سَيارتكَ ذَات النَوافذ الكريستالية المضادة للرصَاص الحَي يا من مَات فيكَ ذَاكَ الإنسَان ، و لكني أستَفرغُ عندما أُشَاهدُكَ تُمسكُ بأطراف أصَابعكَ السيجار الكُوباني الذي يتَربعُ عَليهَا خَاتمُكَ الذَهبي ذُو الحَجر الكَريم و تَرسُمُ سمومكَ كمَا تُريد و تَهوى ، نعم كُن غَنياً و لكن غنى النَفس أجملُ و أبهَى يا أحمق ، تَشُدني

رُوحي عندما أراكَ تَتَهافت إلى مُخَيمَات اللاجَئين و المسَاكَين و الفُقراء تُطعمُ هَذا و تُعطي هَذا و تَكسوا هَذا و تُربتُ على كَتف هَذا ، و لكني أستَحقرُكَ عندما تَتَبجل و تَتَربع في المجَالس و تَقول بأعلى غُرورك أنَا و أنَا ، يستَهويني ظلُكَ و أنتَ تَقفُ بَينَ يَدي الله في مَحرابه أمَامَ صَليبه تَحتَ نَجمة دَاوود في الصُفوف الأولى بينَ كُثبان الحَجيج و في مُقَدمة كُل مَسعى ، و لكن قلمي لن يسعَى عندما يلمحُكَ تُؤذي الآخَرينَ بلسانكَ و نواياكَ و ظُنونك ، يا كذاب يا لصَ الإيمَان ..

ما تَظُن نَفسَك فَاعلاً !! ..

أنَا إلى هَذه اللحَظة من مَسيرتي الأدبية أكتُبُ و كُلي و حبري و قَلمي و سُطوري و أهوائي و أفكَاري أُلقي كُل عتبي على عُلمَاء النَفس البَشَرية الذينَ بحَاجة إلى مَصح نَفسي و أكتُب :

لمَاذا إلى هَذه اللحظة من التَطور و العُلو في العُلوم و الفُنون لم تَكتَشفوا دَواء لهَذه الأمراض التي أودت برئة كَوكب الأرض ..

أُحاولُ أن أَكتَشف ذَاكَ العلاج المُهمُ في مَخابر عُزلتي ، و لأنَني لسَتُ مُخَيراً في اختيار اسمي أو ديني أو وَطَنيتي فَدعني أقول لكَ بأنَنَا ضَحايا المُجتمع و أفكَاره القَذرة ، و لأنَنَا مَجبولينَ على الخَوف فَدعني أُطمئن الجميع فَلن تَستَطيعوا أن تُفكروا بالمُستَقبل .

ولله الحَمد، لقد وَجدنَا كمَاشَة لنُعَلق عَليهَا فَشَلنَا الذَريع في مُوَاجَهة حُثَالة المُنَافقين على كَوكب الأرض من مُؤمنين و مُلحدين طَبعاً ..

عندما تُوصد كُل أبواب المُوَاجَهة و تُكسَر كُل علاقات قَول كَلمة الحَق في وَجه الضَبابيين ، سَتعلم عَلم اليَقين بأنَكَ مُتَرسٌ بالخَوف ..

الخَوف هُوَ العَلامة الوحيدة التي لا تَقوى على مُوَاجهتها ، حَالة غَريبة تَنتَابُكَ، تَشعُر بضيق الصَدر و التَوتر و القَلق و الخَشية من المُستَقبل ..

دَائماً أَقول و مَاذا بعد !؟ ..

و مَاذا سَوفَ يَجري بعد ذَلك !؟ ..

المَوت مَثلاً ، فَيا حَي هَلا بالمَوت ، أنتَ كَونَك إنسَان مُركَب من عقائد و أَفكار و خُرافات الآخَرين لا تَساوي في قُلوبهم قشرة بَصلة ، عفواً البَصَلة لهَا قيمة عند الدمَشقيين لأنَهُم يَصنعونَ منهَا حسَاء قشر البَصَل، و لكن أنتَ مَاذَا سَوفَ يُصنع منكَ !؟

لا شَيء أَبداً ، بل تَعتقد إن لم تَكُن ذئباً فَسوف تَأكُلكَ الذئاب ، يجَب أن تَعرف أَيضاً بأنَ زَمن الذئاب قد وَلى ، فَنحنُ نَعيش في كَوكب يَغصُ بالثَعابين و لكن لا يوجد لهَذا الكَوكب شَراب سيفن آب لأَن الغَصَة في الحَقيقة قد وَصَلت إلى الحُلقوم ..

آسف أيُهَا الكَوكب ! ..

الخَوف لَيس بمادة مَلموسة ، بل تُلامسُهَا الأرواح التي خَرجت عن أي قَانُون جَائرٍ كَانَ أم صَائب ، فَمنذُ الصغر، يبدأُ الكبار الذين تَوارثَوا الخَوف خَائفاً عن خائف، يُلقنونكَ مَشَاهد الخَوف و أفلام الأَكشن و الإثَارة، وأنتَ تَغرقُ شَيئاً فَشَيئاً في مُستَنقع بَولكَ ..

الأمثلة كَثيرة و المُصائبُ جَمَّة جداً حَد الصدمة ..

فَالصَدمة مَادة تَأتي بَعد الخَوف تَمَاماً ، و لكن الصاعقة التي أفزعت البَشَر من لَفيفَ المُؤمنين المُنَافقين بأنهُم زَرعوا في أدمغة الأَجيال التي كَسَرت كَثير من القَوانين الكَاذبة في أزمة الحُريات و الانفتاحَات الفكرية ، فلقد كَانَ أكبر فَتح لنَا

و لله الحَمد هي فَتحة تَنورة هَيفاء وهبي التي تَطل من خَصرهَا إلى أَخمص قَدَميهَا ، و الفَتح الثَّاني الذي نَصَرنَا كُل نَزعة فينَا هي فَتحة الظَهر التي في فُستَان المُطربة الفَذة أصَالة ، و هُنَاكَ كَثير من الفُتوحَات أخشَى من ذكرها أن تخدش الحَياء العَام ..

ان الذي يسمعُني عندما أَتَحدث عن الحَياء العَام سَوفَ يَقول بأنَنَا نَعيشُ ذُروة الحَياء و نَخشَى من كُل شَيء و حتى من أنفُسنَا ، يَا سَيدي المُصيبة ليست بالخَوف بل بقُمامَة الظُنون بين بَعضنَا البعض ، فَالجَار يَخشَى من جَاره أكثر من خَشيته من ضَميره ، لأَن الضَمير الإنسَاني سَلمناهُ لغَيرنَا ، فَلا يَصلح بأنَ يكونَ في أَجساد كَاذبة ..

الضَمير بحَاجة إلى نُفوس صَالحَة لا تَخشَى شَيئاً ، و أعظم كَارثَة بأنَ البَشَرية تَخشَى الله خَشية كُره و ليسَ العَكس ، أنَا أريد أن أَعرف كَيف لحُثَالة من المُتَدينين يتَجرؤون و يُفرغونَ عَفنهم في عُقول الأجيال بأنَ الله مُخيف !؟

مَا هَذا الهُراء و الدَجَل و قلة العَقل !؟ ..

الله هُوَ الحُب يا من تَكرهونَ الحُب و يا من جَعلتُم الحُب خَارج إطَار أَفكَاركُم و مُعتقداتكُم و أَهوائكُم ، و حَمير المُؤمنين أصحاب اليَقين الجَازم بأنَ الله يُعبد خَشية و خَوفاً، أضَع لهُم هَذا الحَديث القُدسي و الذي نَفسي بَيده لو وَضَعتُ لهُم ألفَ حَديث قُدسي فلن يَقتنعوا ، لأَن الخَوف تَرعرع قَبلهُم و شَبَ قَبل أن يَنبُت الشَعرُ على وُجوههم ، يَقول الله في الحَديث القُدسي :

أنَا عند ظَن عَبدي بي ..

قَاعَدة سَطَرهَا لكَ الله مَدى الحَياة ، إن كَانَ ظَنُكَ بالله حُباً فيَا هَنيئاً لكَ بالعشق مَدَى الحَياة ، و إن كَانَ ظَنُكَ بالله أنهُ شَبحاً فَيا لتعاسَتكَ مَا دُمَت على هَذه البَسيطة حَياً ، و على الحَالتَين أنتَ عندَ ظَنكَ بالله إن خَيراً فَخَير و إن شَراً فَشَر ..

ببسَاطة الله لا يُخيف إلا من باعَ إنسَانيتهُ و استَبدلها بالكَراهية و الحقد و الكَذب ، سَتضطر أن تَتَعايش مع هَذا المُجتمع المُنافق ذُو العيار أربعة وعشرين ، بالأحرى هُو نفاق كَامل الدَسَم أصلي ١٠٠% ، يصلح لكُل مَكَان و زَمَان ، تتناقلهُ الأَجيال وكَأنهُ تَحُفة نَفيسة ، آه يا نَفيسة لو تَخرُجي

من قَبرك و تُشَاهدي بأُم عَينَيك كَيف تَطور النفاق و أضحى عملة صَعبة جداً، بل أَغلى من الذَهب و الألمَاس ، على مَواقع التَواصل الاجتماعي، في التلفاز ، عَبر الراديو ، يَمشي في الشَوارع عَارياً بلا حَياء و لا خَجَل ، يَتسوق و يَتَبضع مع النَاس يَضَحك لهُ البَشَر وكَأنهُ مُطَربٌ مَشهُور ، يتَحلَقُ حَولهُ جَمَاعة الياااي من الشُبان ، و تَلطقتُ معهُ الفَتَيات صُور السلفي، وتُشَاهد لهُ المنشورات عَبر الصَفحات و المَواقع كَالعسَل الذي يسيل خَلف مقود الشَاشَات المَحمولة، الجَميع يَسيل خَلفَ الزُجَاج و تَرى أصحاب المُجتمع المثالي ذو القيم المثالية يتَشَدقونَ و يتَباهُونَ بالوَلائم و البضَائع و المَاركَات و السَيارات والرحلات ..

وَحدَهُم البُسَطَاء الذينَ يتَلذذونَ بالأَشَياء عن بعد و يَستمتعُونَ بجمالهَا و رَونقهَا مُتَفادينَ فكرة الاستملاك و الاستهَلاك و الطَمع و الجَشَع ..

مُنَافقونَا الأَجلاء، الذينَ نَبتسمُ لهُم كُل صَباح خَشية أن نُطردَ من العَمل ، أو أن نسدَ مَصَالحنَا مَعَهُم ، أو أن يَصنع معنا

تَدبيراً سلبياً نَندمُ عَليه طيلة الحَياة ، هَؤلاء الثُلة من أصحاب البريستيج العَالي يَعشَقون التملُك ، هوايتُهم السَحب و الشَفط و اللهط وجَمع المُقتنيات و المَاركَات و أن يَكونَ اسمهُ في الصَدارة و أن يُدَافع و يُنافحُ عن مَقامه في الحَفلات و المُنَاسَبات و التَجمُعَات القَذرة ..

لقد قُلتُ سَالفاً بأنَ الشَيطان وَهم ، أيُهَا الشَياطين المَوهُومة أُخرجوا من جُحُوركُم و تعلموا القذارة من مُنَافقينا ..

مُنافقينَا ..

غَير عن أُمة الله ..

هَكذا هُم، من نَوع فاخر و غَير مستورد ..

عندنا نفاق نُصَدرهُ إلى كَافة القَارات ذُو النَخب المُمتازة، بضاعة غَير مُكررة استعصت على الصين في تصنيعها مرةً أُخرى ، ويُمنع منعاً بتاتاً مسُها لأنها مُغلفة بطريقة لا يتصورها عقل إنسَان ، نفاق مُعلب أو مُبستَر أو مُجمد أو سَائل أو دُهن أو شَحم ..

جَميع ما تُريدهُ مَوجود .. كُتب عَليه :

من عندنا و بس ..

شعارٌ لا يَعرفهُ أَحدٌ سوانا ، نتداولهُ كي نُغري الزبون ، و مع أنَ الزبون منا و فينا فَلا ضيرَ أن نرشق هَذا العَالم بنفاقنَا ..

بنفاقنَا قَد ظهرت عَورتنا للعلن ، يراها القَاصي و الداني، و فاحت رائحتنا ، و أما مَذاقنَا فتباً لهُ من مَذاق ..

يا سَيدي دعك من هذا كُله ، و تَمعن معي بالزَيت المَغشوش الذي يُباع في الأسواق و المَحال التجَارية ، أو البضَائع التي نَفذَت صَلاحيتُهَا ، أو صَاحب المَتجر الذي يَجلسُ بجَانب صُندوقه الذي جمعَ ثَروتهُ غُشاً و انظُر ماذا عَلقَ فَوقَ رَأسه !!

بالمنَاسَبة، إنهُ نفاق قَد شُكل فوقهُ خَرزة زَرقاء ، خَوفاً من مَاذا ! ، خَوفاً من العَين و الحَسَد ، يا الله بحَق نُورك الذي أنرتَ به السَماوات و الأرض أخبرني مَاذا يَجري على هَذه الرقعَة من أرض المُنَافقين !؟ ..

النكتة ليست في هَذا المَوقف ، كَلا !!

بل في الأسواق التي يتَوسَطُهَا أحد بيوت الله الذي يُطلقونَ عَليه أهَل السُوق أو السُوء الجَامع الكَبير ، ذَاكَ المكان الذي يجتمعُ به كبار اللصوص و المُحتالين و الغَشَاشين والمُنَافقين ، وُجوه قَد قَبحهَا اللهُ فوقَ قُبحهَا ، و رَوائح المسك تَفوح من قواريرهم الصَغيرة كَي يستروا به روائح نفاقهم ووجوههم الحَقيقية ، و مَلامح مَحفوفَة اللحى والشَوارب بَأنواع عدة ، و مَلابس مُتفاوتة الثَمن و النَوع ..

أَقمشة رَديئة مَغسولة و مَكوية تَفوحُ منهَا رَوائح المَاء الممزوج مع لُعَاب النسوة قَبل الكي ، مُطَرزة بخيوط مُموهة كَي يستروا مَا رزَقهُم اللهُ من مَال ، ولو سَألتَهُم السُؤال الذي يعتادُ عَليه تُجَار السُوق والسُوء :

ـ كَيف الشُغل اليَوم يا أبو فُلان !؟ ..

سَيتغير طَعمهُ و لونهُ و رَائحتهُ ، سَيأخُذ ذَاكَ النَفس العَميق الذي من المُمكن أن ينفُخ به دُولاباً ، و يُخرجُ زَفيرهُ المُعتق برائحة البَصَل و الثُوم و الفُول :

ـ و الله خَليهَا على الله ، الحالة دَاقرة ..

أي العَمل ليس جَيداً لهذا اليَوم ، يُرممُ تَذمرهُ بَعد اعتراض على مَا أعطاهُ اللهُ من زرق ، طَبعاً هُوَ كَاذبٌ بامتياز ليقول :

ـ و الله لا نَقول إلا مَا يُرضي الله .. الحمدُ لله ..

مُنافقونا يا سَيدي من نَوع نَادر جداً و أكثر مما تَعتقد ، لن نَستبدلهُم بأموال الدُنَيا كُلهَا ، إن وَقع في حَرام فالحيلة و

الفتيلة بيد شَيخ الحَي أو قسيسه ، نَدعوهُ على طَعام دَسم و تُسدُ أكبر ثَغرة ..

مَا هَذا الجُنون و الكَذب على الله ..

٩٠% من عُلمَاء الدين بكَافة أطَيافهم و لا أستثني منهُم أَحداً يَعلمونَ عَلم اليَقين بأن طَعام هَؤلاء اللصوص أتت بالحَرام ، و لكنَ منَصبَ التَاجر بالوَجَاهَة و الشَياكَة أعمت من تتلمذ على وَحي الله و قُدسية علمه ..

يَعرفُونَ بأنَ طَعامهُم حَرام ، و يأكلونَ عندهم ، و يُجَالسُونهُم ، و يُقدمونهُم في كُل جَلسَة نفاق و من ثُمَ يُفتونَ بسم الله و أنبياء الله ..

كَيفَ سَوفَ أُؤمنُ على إيمَاني الذي بينَ أيديهم !؟ ، كَيفَ سَأدعو الله خَلفَهُم !؟ ، كَيفَ سَأُصَلي و أركع و أسجُد وراء مَحاريبهم !؟ ..

الكَارثة ليست بهم بل ببؤرة الفساد التي تعيثُ بالأَسواق حراماً و سَرقةً و نَهباً و لُصوصيةً ، مَافيا تَحكمُ المحَال

التجارية في الأسواق الشَعبية ، أغلبُهَا كُتبَ فَوقَ وَاجهتها آيات من القُرآن الكَريم :

هَذا من فَضل ربي ..

لئن شَكرتُم لأزَيدنكُم ..

أفلح من صَلى على النبي ..

و هلمَّ جراً ، تلكَ الجرة التي سَاقتنا إلى كُل مُنافق لا تكسرهُ عَلامة جَر ، لأنهُ مُتحلقٌ باللصوص في غُرفة التجارة في مَدينته ، تسمعُ المَثل الذي يَقول :

أضَعُ في فَمهم لُقمة .. من أجل مئة لُقمة ..

فهمان يحرسهُ ربي من العَين و الحَسد ، صَحيح، لقد نَسيت! لقد حَصَنَ نَفسهُ من العَين و الحَسد بالتَمائم و الخَرز الأزرق و حجابات الدَجالين و المُشعوذين ، هُوَ يَعيش على رُقعة مَحمومة بالذُعر و الرُعب ، يَخافُ من كُل شَيء ، لم يَذُق طَعم النَوم مُنذ أن بدأ يسّيرُ رزقهُ في هَذا المتَجر ، أسَألهُ بالله عَليك هَل يَنام ؟ ..

نَعم يَنامُ في كُل خَمس دقائق دَقيقة ، هُوَ الذي أحكم أقفال المَحل بالحَديد ، و ركبَ خمسة عَشَر كامرة تَحسُباً لسَرقة أو حَريق ، و قَرأ قبل أن يُغلق مَتجرهُ جُزءً من القُرآن على نَية الأمَان ، و خَرجَ مُتوكلاً على الله ظناً بأنَ هَذا تَوكُلاً ..

رُبمَا يخَرجُ من السُوق ثمَ يَعودُ مُسرعاً حتى يتأكد بأنَ المَتجر مُقفل ، هُوَ يعَلم بأنهُ مُقفل و لكن الخَوف و الرُعب هَزَ فرائصَهُ ..

بضَائع فاسدة ، و أنواع من المَأكولات أو المَلبوسَات مُنتَهية الصَلاحية ، و احتكار لكُل مَا هُو مَفقود في الأسواق ، و أكل حَق العُمَال ، و أكبر نُكتة سَمعتُهَا في بُقعة المليون مُنَافق اسم صَاحب المَتجر عندما يُكتب في أعلى مَحله :

مَحل الحَاج فُلان الفُلاني ..

حَتى الحَج في بلادنَا عَبارة عن مُؤامرة ليصطاد بهَا قطيع المُستَهلكين ..

أتعبهُم النفاق يا قَوم .. هَونوا عَليكُم ..

مُنافقونا ..

خَطٌ أحمر لا يَمسهُم إلا القَذرون ..

آخر عَرض ، كُن مُنَافقاً لمُدة عام كَامل و احصل على حَجة إلى بيت الله الحَرام ، و في رواية أُخرى صُم اثنين و خَميس و سَنرشحكَ لتَكون لجنة في مَسجد الحَي ، و في رواية أيضاً رَمم ضَريح أَحد القديسين و سَنُعمدُكَ مَرة ثَانية و نَذكُركَ عندَ الرب ، و أيضاً أُنقُل خَمسَ مَعلومات حَتى لو كَانت كَاذبة إلى المُخابرات و سَوف تَحصُل على رُتبة تَحتَ عنوان مُخبر شَرف ..

و ما اَكثر المُخبرين ..

هَل تَرى أَكوام الفسَاد التي تَملأ بعض البلاد !! ..

في الحَقيقة إنها قامت على الفَساد ، انتَظر لا تَذهب .. ليسَ أيَّ فسَاد كَلا !! ..

فسَاد فاخر من طراز المَاركَات المكفولة ..

مُنافقونا مَكفولون ، يُباعونَ و يُشترونَ كما تُريد و بالعُملة التي تُريد ، و حَتى لو بعتَهُم بالقُمامة فَقد رَبحَ البيع ..

وكون مُحيطي يَعجُ بالكُتاب و القُراء، فلا ضَير أن أُلقي معكُم نَظرة و لمحة تاريخية ومُستَقبلية على أكوام المُنافقينَ من كُتاب مُعاصرين فارغين مُتَفرغين لعَمليات الوَجَاهة في المُنَاسَبات الرَسمية و غَير الرَسمية ..

كُتاب بلا قَضية و لا هَوية ، مهنتهُم النَقيق كَأنهُم عَبيد في سُوق الرَقيق ، تَبيعُهم ببرسينَ و تَشتَريهم بالفَازلين ، أنَواع هَشَة فَارغة لينة و مُلينة ، ألينُ من الشَمع والسَمن وحَتى من الزَيت .. ذئابٌ ولكن من نَوع العَرض الفلكلوري ، يتَجملونَ بكَافَة عَتادهم المُصطنع لكي يَراهُم الجُهال أكبرُ قدراً من سُوق الهَال ، و لكن هَذه الأيام و بكُل صَراحة، جُرزة البَقدونس تُسَاوي خَمسَة عَشَرَ كَاتباً كَاش، هَذا اذا لم نحتسب الباقي!

أجمل المَواقف عندما كُنتُ أمشي في أحد الأسواق الشَعبية ، و بينما كُنتُ خَارجاً من مَعرض الكتَاب ، كَانَ أحد الكُتاب الكبار الذينَ نُكبرهُم نَحنُ بنَفاقنَا و هُوَ لا يَسوى قشرةَ ثُوم ..

في ذَاكَ اليَوم كَان مَعرض الكتَاب فَارغاً لأنَ النَاس بصراحة لم تَعُد تَهوى الكَلمات المُصطنعة و فَلسَفة الحَمقى .. فالمُهم ..

مَشيتُ وَحدي و حولي مئات من البَشَر يتَسوقون و يتَبضَعون من الألبسة و المواد الغذائية ، كَانَ يَقفُ رَجُل يَبيع الذُرة ، رَائحة الذُرة أقوى من رَائحة الكُتب ..

شَدتني طُفولتي أن أقفَ بينَ هَؤلاء الأطفال ، تَخيل يا رَعاكَ الله أربعينَ دَقيقة حَتى حَصَلتُ على قطعة ذُرة مَلفوفة بورق كتَاب ..

ذُرة مُغبرة بالملح و مُحمسة على الفَحم و الناس تَتَلذذ بهَا أكثر من أي كتَاب ، سَهلة الهَضم لَذيذة المَذاق تَشدُ الشَبعان قَبل الجائع..

و لأَنَنَا تَوارثنَا الجوع بأنهُ جُوع أمعاء فقد فقدنا ثَقافتنا البتة لأنَنَا سَلمنا أقلامنَا لكُتاب فاقوا ابنَ سَلول في تَلميع الدكتاتُورية العَربية و أقَرضنَا أدمغتنا لأَفكار نَحنُ نَعلم علم اليقين بأنهَا عبارة عن رَوث دَجاج ، بل ان رَوثَ الدَجاج

سَمَاد للأرض و رَوثَ الفكر مَوتٌ للعَقل ، و لأَنَنا مَخدوعينَ خُدعة نَحنُ من كَذبهَا و صَدَقها في آن وَاحد، ليتكَ ترانَا عندما يَدخُلُ ذَاكَ الأستَاذ !!

تَعالي و شُوفي يا مَشَحرة طُرق النفاق كَيفَ تُسوى بالسجَاد الأحمر ، و المَيكرفون البرونزي و نَبرُش الوَردَ بَرشاً في كُل القاعة ، و لا يَرضى الأُستاذ أن يُلقي كَلامهُ الفارغ على مَسَامعنا إلا في دار الأوبرا أو دَار الآداب التابعة لوزارة الثَقافة في ذَاكَ البلد ..

جموع المُنَافقين في كُل مكان ، الكامرات أشهرت عُيونهَا لابن سَلول ، وجوهٌ مُغطاة بالكَذب ، و شفاهٌ تتناقَلُ أخبارَ أغبياء المُثَقفين هُنَا و هُنَاك ، همزٌ و لمَزٌ و أصوات مُنَخفضَة وكأن للمكان هَيبة ، مُقدمٌ أو مُقدمة جَميلة مَصبوغة الشَعر مُغبرة بالمَكياج ، رُبمَا جَلست في مَحال المُونيكير و البُوديكير مَا يُقارب ثَلاث أيام بلياليهنَّ من أجل حَفل الأُستَاذ ، اسمهُ السداسي بالخَط الأسود العَريض يَتوسَطُ العَرش الذي سَوفَ يُنجسهُ ، و يَدخُلُ شَامخاً مُعطراً بكَافة أناقَته الغَير مَنطقية ..

تعجُ القاعة بتصفيق مُنَافقينَا ، و تُعزف المُوسيقى من بَعد أن يُقدم الأُستَاذ من قبل الحَسنَاء المغناج صَاحبة الأظافر الطَويلة و القلم الحُمرة الفَاقع الذي يَسيلُ لهُ لُعَاب الرجال من الحَاضرين ، و يَبدأُ يُلقي على مَسَامعنَا جُنونهُ و هَوسَهُ و نفاقهُ ..

أتانَا من آخر الدُنَيا كَي يُلقي عَلينَا قصيدة عن فلسطين ، و الجُوع و القهر في الوَطن العَربي و البطالة و الرذيلة المُنتَشرة أكثر من العَاطلين عن العَمل ، و غَيرهَا من أُمور تَعبَ القَلبُ من سَماعها ، تُصَفق لهُ جماهير المُنافقين بحرارة ، بحراة أعلى من دَرجة انصهار الحَديد في بيت النار ، أو حَرارة تُعَادلُ حَرارة الشَمس ونفاق هَذا الكَوكب اذا صح الكلام ، إنهَا الحَرارة التي استأجرت لهُ هَذه القاعة بمبلغ مُرعب ، نَاهَيكَ عن الوَرود و البُوفيه المَفتوح و بيع كُتبه التَافهَة التي أمسحُ بهَا زُجَاج نافذة بيت الخَلاء ..

و الذي نَفسي بَيده لو وُزع هَذا المبلغ على جياع غَزة لشَبعُوا و قَالوا خُذوا عنا أموالكُم فقد شَبعنا مَوتاً ، فَنحنُ بحاجة إلى كَرامة ..

كُتاب باعوا كَرامتهُم و اشتروا اسمهُم ..

يا الله عَلى قَلبي .. و حَتى اسَمهُم أضَحى عُملة تُباعُ و تُشَترى من قبل الوَرثة ، نفاق يُتَاجَرُ به حَتى لم يَعُد الموتُ مُرعباً كما السَابق ، كُتاب يَصطفون مع الظلمة في وَقت تَقفُ الشُعوب مع الكَرامة و الحُرية ، اسمَاء سَقطت من عَيني لأنَ كلامهُم شَيء و وَاقعهمُ شَيء آخَر، تَعجبتُ في لَحظة شرائي للذُرة بأن الوَرقة التي جُعلت ممسكاً لهَا هي صَفحة من كتابي : مُنافقون بأتكيت ..

ها .. ها .. ها ..

مُنافقونا ..

أنَذل من في الدُنَيا ، و أرذل بني البَشَر ..

يُصدرونَ كُل مَا لا تَتَوقعهُ ، أُلجمت المحَاكم بهم ، و دُور العبادة ، و في مداخل الأسواق ، و في أحشَاء مراكز التَعليم ، و في المشَافي العَامة و التَمركُز الرئيسي لهُم في المَشَافي الخَاصَة ، و في الدوائر الحُكومية يتَجولونَ و يَحملونَ المُصنَفات المشبوهَة و الأوراق المُزوَرة ، والذي يَضَعُ العَقلَ بالكَف هو أنَ هَذه الطَبقة من المُنافقين يُطلقُ عَليهم :

وَطنيين ..

بالله عليك انتَظر حتى أسأل لكَ جَارتي ، هي أعلم بحَالهم هَل هُم وَطنيون مع الوَطن أم وَطنيون ضد الوَطن فَاللهُ ثم الجَميعُ أعلم ..

آهٍ كم أنَا مُتوجع من هَذه الطَبقة ، و الله لن يَقضي عَلينَا غَيرهُم و يَلعنوا أبونا على أبو أَبونَا ..

نَراهُم كُل لَحظة يتَجولونَ في الطُرقات ، نُسَلم عَليهم سَلام الحَميم إذا لَقى حَميماً ، ونَبتسمُ لهُم ابتسَامة الغُزلان للذئاب ،

نُلوحُ لهُم عن بعد أنَنَا هَا نَحنُ هنَا ، يَردونَ المُبادَرة بغمزة كَشَطبة الدَجَال الأعور المخلوعة من مُنتَصَف حَاجبه إلى جَفنه الأسفل ..

و لأنهُ هُوَ الأسفل فَنحنُ أشَدُ سَفالة ، لأَنَنا في الحَقيقة نَحنُ من نَصنعُهم و نُلمعهُم لأَننَا من أُمةَ الخَوف و الرُعب ، إذا سَألتنا لما تَفعلونَ ذَلكَ !!

فَالجواب :

لأنهُ وَاصل ..

كَلمة لا يَفهمُهَا إلى جُبنَاء الوَطن العَربي ، الذينَ يَخشونَ من أن يَتحدثَوا بسرهم للجُدران و يَخشون من أَن يشي الجدارُ سرهَم و يُفشيه بينَ الوَاصلين ، على قَاعدة الخَوف تستمعُ إلى مُوسيقى خَوفهُم :

نَمشي محد الحَيط و نَقول يا رب الستر ..

و أنَا أمشي بعيداً عن السُطور خَوفاً من أن ألوثَ طهَارةَ قَلبي بالحبر ، و بمنَاسَبة يوم التَلوث العَالمي فَأنَا أُؤكد للعَالم أَجمع بأنَ التَلوث في وَطننَا العَربي لا يُضَاهيه تَلوث ، و أمَا

نَسبة تَلوث النفاق فَوالذي نَفسي بَيده لوَ جعَلوا الشَمس على يَميني و القَمرَ على يسَاري لن أَرضَى أن أُقايضَ منُافقينَا بذهب الدُنَيا كُلهَا ، لأنهُم و لله الحَمد قد نَجحوا في التَصفيات النهَائية في عَالم الكَذب و الغش و الكَذب و الفَسَاد و الحرام ..

يا حَرام لو تَرى الطُهر و العفة عندما يأتَي أَحدنا من بَيت الله الحَرام ، يا يَّمة .. يا يَمَّة .. يَا يَمَّة النُور .

يتقاطرُ من لحيته المَحفُوفَة بشفرة جيليت للحلاقة الرجالية ، رَكز على كَلمة : رجولة .. لأَنَ الرُجَولة بيعت بانعقاد أول مَجلس للدول العَربية عام ١٩٧٩ للميلاد ، هُنَاك و تَحتَ قُبة المَجلس شَمرَ مُنَافقو أُمتنا من سَاسَة و زُعماء و وُجهاء عن عَلامَات الرُجولة و تَمَ بَترُهَا بمقصَات الغُزاة من أَجل مسَاحة من الأرض عَليهَا قَطيع من الشَعب يَهتفونَ بعظمته و كُرسي عَليه ضَمانة أن لا يتَوارثَهُ إلا أَحد الحَمير من سُلالته ..

سَوفَ تَتَساءل ، مَا هُوَ دَورُ مُنَافقينَا ! ..

خُذ صُورة لمَجالس الشَعب أو مَا يُسمَى البَرلمَان ، من هُنَا يَبدأُ النَهيق و التَصفيق ، خُذ عَينة وَاحدة من هَؤلاء المَافيا المَدعو بالعضو في مَجلس النواب :

عُطوفَة و سمَاحة و سيادة الحَرامي فُلان الفُلاني ..

المَاضي و الحَاضر كَفيل بكَشف هَؤلاء المُنافقين ، كَانَ فيمَا مَضَى صَديقنَا المُنَافق مُعارض مُبستَر ، و هُنَاكَ مُعارض طَازج ، و أيضاً على حَسب الطَلب ، عندما أسمعُ بكَلمة مُعارض أطلبُ زُجاجة كوكاكولا من أن يَكون الكَلامُ سَهلاً و سَريع الهَضم ..

فَالمُهم صَديقنَا المُعارض كَانَ فيمَا مَضَى مُعَارضاً مُخضَرماً تَطوفُ حَولهُ النَاس ، يُلقبونهُ بالصَادق الأَمين ، لهُ رَقم هَاتف وَاحد و باب من غَير بوَاب ، و دَراجة هَوائية لجَلب رزقهُ ، و كَذلكَ كُل يوم أَخونا بفرع مُخَابرات من بيت خَالته لبيت جَارته ..

و هَكَذا .. تَعبت الحُكومة معهُ ، أَعطتهُ عُضوية في البرلمَان كَي تُسكتهُ ، فالحُكومات لدَيهَا كشَاف إلكتروني للمُنافقين

فَهي لدَيهَا الخَبرة كَونهَا مَا وَصلَت إلى أعلى السُلطَة إلا بهَذه الأسَاليب المُغطَسَة بالشوكولا ..

تَعال إلى أخينا المُعَارض بعد أن يستَلم مَنصبهُ ، الذي لم يتَرُك شَارعاً في المَدينة إلا و هَتفَ به ، و لا مَيداناً إلا و حَشدَ النَاس حولَ دَواره ، و لا صَحيفة إلا و شَتم الحُكومة بهَا ، و لا فرعاً مُخَابرات إلا و زَارهُ ..

أَخونا هُوَ ذَاتهُ أخونَا ، في الحَقيقة لم يتَغير أبداً ..

و لكن تَغير كُل شَيء حَولهُ ، غَير مسكَنهُ إلى فيلا في حَي أَجمل ، و رقم هَاتفه و جَوالهُ ، و ألقى بالدراجة الهَوائية في أحد الحَاويات لأَن السَيارة تَتَسع لعَشرة أشَخاص مع أربعة من البودي كارد ..

أَخونا لم يتَغير و لكن تطورَ النفاقُ فيه ، كَانَ مُنَافقاً مُعارضاً و اليَوم مُنَافقاً مُؤَيداً ، فَالنفاق لا يتَغَير أبداً لأنكَ ان كُنتَ مع أو ضَد فَهوَ نفاق لا يَمسهُ إلا الكَاذبونَ ، أولئكَ السَاسَة القادة الذين نَصنعُهم نَحنُ عندما نَعرفُهم و نَعرفُ نَواياهُم ..

و من قال بأنَ الظَنَ حَرام ، ففي الوَطن المُهمش أضَحينَا نشتاقُ إلى الحَرام لأنهُ أقَل جُرماً من النفاق ، فالحَرامُ يَذهبُ مع صَاحبه ، و النفاق يحَرق صَاحبهُ و يَحرقُنا و يَحرقُ أبونا و أبو أبونا ..

لم أعُد أَقوى على أن أبتسمَ لهُم ، لم تَعُد قَدمي قَادرة للمَشي إلى مَجالسهم و حَفلاتهم ، أرهقني قلبي و قلمي في مدحهم ، و حَتى جَنائزهم أخشَى من السَير خَلفهَا ، أخشَى من أَن أُصَاب بالعَدوى فَأُحالُ إلى التَقَاعُد من صَفاء القُلوب إلى نفاق الأرواح ، قَطعتُ الثَلاثين من عمري و أَخافُ أن أرحلَ و لم يُشفى قلبي و لا قلمي منُهم ، و هُؤلاء الحُثالة و الله ليجننونا و يخلونا نَحكي مع حَالنا ..

منافقونا ..

ضَمادات الجراح إذا استفحل الفَساد ..

نلجأ إليهم إذا ضَاقَ بنَا النُور ، فهم الغَارقونَ في حُلكة الظَلام والمُجردُونَ من الفَضيلة والمُنغمسونَ بالرَذيلة ، تُسدُ في وَجهكَ الأبواب و تفقدُ مَفاتيح السَير إلى مَا تَطمئنُ إليه الأَرواح و تُترسُ الأقفالُ بالوَجع ..

نستفتي قُلوبنَا و لو أفتانَا ألف شَيطان ، نُكررُ الفَتوى فتقوم في رُبوعنا البلوى ، و نُخيطُ شُقوقَ الوَهم بإبرة الرضَى كَأنَ الرضَى كذبة و صَدقناهَا ، نَصبرُ مَدى الجراح التي يخرجُ منهَا ملح الترقُب ، و تختنقَ الرُوح إلى أن يصلَ صَوت الصَبر إلى الحلقوم ، نَموتُ ببطء و نَحنُ على قَيد القَلم ، لا نُريد أن نَلجأ إلى الظَلام لأنَنَا رُبينَا على بسَاطَة النُور فَأجسَادُنَا لا تَقوى على المشي في مَداخل مُوحلة بالفسَاد ..

الضَمير الحَي الذي قتلنَا و قتل أحلامنَا على أمل أن يُعوضنَا اللهُ بالأَفضَل ، فَعلى مَا يبدوا أنَ الله عَوضَ الكَثير من الصَادقينَ بلحود مَنسية قد كُتبَ عَليهَا :

هَذا مَا وعدَ الرحمنُ و صَدقَ المرسلون ..

ندكُ ونهدُ ونسهرُ على سَمر الوحدة ممتلئين بالشجَاعة و الحُب ، نَقسوا على قُلوبنَا المُرهفة بَكلمات صَدرت من الأسطورة مَحمود درويش :

على هَذه الأرض ما يَستَحق الحَياة ..

نُعلقُ فَوق منضدة التعَب أقاويل للعُظَماء كَي نَستُر على كَسرنَا و فقرنَا ، يأتينَا الشَيطانُ في لحَظة ضعف ليقول لنَا :

قال فبعزّتك لأُغوينهُم أجمعين، إلا عَبادَكَ منهُم المُخلصين ..

نُصَنف أنفُسَنَا في عداد المُخلصين كي نَطرُدَ ذَاكَ اللعين من صُدورنَا التي لم تَعُد تَتحملنَا. نتحملُ كُلَ الجُوع و الفقَر و العَوز و السهر و التعب لأنَها تَقفُ خَلفَ كُل رَجُل أُم حَنون ، تلكَ المسكينة التي تَنصحُنَا دَائماً :

إياكُم و الحَرام ! ، إياكُم و أن تَبيعوا ضَمائركُم ..

جَلستُ مَع ضَميري ذَات صَيف ، كَانَ عمالقة الأدب يَتجولونَ في عَواصم العَالم و يُغرقونَ مواقع التَواصل

الاجتماعي بالصَور و الفيديوهات ، حَتى قَال لهُم القديس مَارك :

مشَان الله بكفي تَحميل نفاقكُم ، فَلقد سَقطَ هَارد الفيس بوك ..

قُلتُ لهُ أيهُا الضَمير، إلى متى الكَلمة الصَادقَة تَبقى مَحبوسَة بينَ دَفتَي الكُتب ! ، إلى مَتى التَجريم في حَق الفكرة الحَية ! ، إلى متَى تُبدلُ الأرض غَير الأرض ! ..

طَبعاً لا جَواب لأنَ الضَمائر خَرسَاء ألجَمها ظَلام الحَمقى و أرهقتها التعَابير عما يَجول حَولَ هَذا الكَون من فتن و مَباهَج ، حَتى استَعرتُ بخلوة دَامت سَنتَين بينَ جُدران المكاتب التي تَصطفُ بهَا كُتب مُنَافقينا ، جَربتُ بأن أختلط بهَذه الطَبقة المَخملية المُتَجبرة على قَانون الضَمير الدُولي فوجدتُ بأنَ الفسَاد يتَقاطرُ منهُم ، يتَصَارعونَ على أسَمائهم العَفنة و يتَوهمونَ بأنَ كُلَ شَخص منهُم سَيُقارنُ يَوماً من الأيَام باسم شَكسبير ، و لكن شكسبير نَفثَ بي الأمل حينما قَال :

نَكُونُ أو لا نَكون ..

كَانت النَدوات تُعقدُ لمُنافقينا في السَفارات العَربية في الغَرب ، لم تتغَير روَائحُهم و لا أقنعَتهُم و لا بَحيحهُم و لا جلودهُم ، تَكسُوهُم ثَياب مُلونَة لمَاعَة براقةَ مُتوهَجة كَجُلود الأفاعي و دثار الحرباء ، سَاعات و مُجوهرات و مُقتنيات و صَخب كَاذب، تَجمعوا حَول مَائدة الأدب يَتقاسمونَ النفاق فيما بينهُم بالتسَاوي أو على حَسب الفسَاد ، آه على الأدب لو نَطق سَوفَ يشقُ فُوهات آذَانهم و يشطرُ أدمغة رؤوسهم شَطرين ، بكى الأدبُ ذَاتَ قسمة عندما تَقاسَمَ المُنافقونَ كَعكَة الكَلمات و رفعوا نَخبَ استيلائهم على منصَات الصَادقين ، نَطقَ الأدبُ فينَا بَاكياً :

تَموتُ الأُسودُ في الغَابات جُوعاً ..

ولحم الضأن تأكلهُ الكلابُ ..

وعبدٌ قد ينَامُ على حَريرٍ ..

وذو نسبٍ مفارشهُ التُرابُ ..

مُنافقونَا، لو تَرى لَمعةَ الفسَاد التي يَلتحفونَهَا في مَوارب الغَرب ، و الكُروش و الأجفان المُترهَلة ، و السجاد الأحمر المَفروش الذي يطئونَ عَليه ، و أسماء ليسَت كَالأسمَاء جَمعها السُمومُ و بعَثرهَا البلاء ، أصحَاب شَركَات تُدارُ في الوَطن العربي تَحتَ مُسَميات عدة تشتغلُ في شَركَاتهم مَافياتٌ مَأجورة يتَقاطُر منهَا دَمٌ حَرام، يُسندُ الأمرُ إلى غَير أهَله و تَضيع الأَمانة و يضيعُ الأدبُ و تَتفشى قَلة الحَياء كَغزالة عَمياء لا تَعرف كَيفَ الخَلاص ، و تَرتفعُ الأسهم تَحتَ قَبة البُورصات الأُوروبية ليقَعَ الضَميرُ شَهيداً جَميلاً كَالياسَمين ..

يُدفنُ في لَحد الحَائرين الذي أرهَقهُم الأنَين ، و تَصطدمُ بشُبان يَحملونَ شَهادَات في الطب و الهَندسَة و الفلك و عَلم الذرة في مَطَاعم العُروبة يعملونَ في المقَاهي و المطاعم خَدم و حَشَم للصَوص الأُمة ..

ينزفُ القَلبُ لحال الطَاقات التي كُنَا نُلقي عَليهَا أملَ الأُمة ، و لكن (أمل) قد وُسَدت التُراب بجَانب الضَمير العَربي منذ

أن أضحت أكبَر قَضية لنَا من سَيفوز بأجمَل صَوت عَربي عَبر برنامج (أرب أيدول) ..

هُنَا أنزوي بكَلمَاتٍ باكياً مُتَحسراً على مُجتمع انحدر من صُلب ابن النفيس و ابن خَلدون و الجاحظ ، و الله يا زَمنَ الرُعب إنَي أحسد نَجيب مَحفوظ و نزار قَباني و مُحمد المَاغوط لأنهُم رَحلوا و لم يَروا سُرّاق الأدب و الثقافة و الريادَة ينَفخونَ شُموعَ النصر على مُستَقبلنَا الذي أضحى كحَمامَة سَلام مَقصُوصَة جَناحاهَا ، مُنافقونَا غَير يا عَمي ، خَط أحمر .

مُنافقونا ..

أُهدي لهُم أُغنية :

و دُق المجوز يا عَبود .. و رَقص أُم عيون السُود ..

استَفحلَ النفاقُ إلى من أقسموا يَميناً أمَام الله و الوَطن بأنَ يكونَ علمهُم في خدمة الإنسَان ، حَيثُ تَغابوا على أنفُسهم بأنَ الإنسَانَ أُستُشهدَ في جَوفهم ، و بَقي أمَامنَا هَياكل بَشَرية مُغطاة بالكريمة البيضاء و فَوقها قطعة من الكَرز الأَحمر ..

من هُوَ يَا حزرَكُم !؟ ..

إنهُ الطَبيب العَربي تَاجر البَشَر الذي لن يُملأُ فَاهُ إلا التُراب ، ذَاكَ الذي نَخافُ الذَهاب إليه ليس خَشية من المَرض كَلا ، بل من أُجرة علمه و طبه و الوصفة التي تُقدرُ براتب شَهري لعَامل في إحدى مُؤسسات الحُكومة ..

الأَطباء عندنَا على حَسب الطَلب ، هُنَاكَ تُجار و هُنَاك مُحتكرون و هُنَاكَ لصُوص و هُنَاكَ قُطَاع طُرق و هُنَاكَ مُتسَلقونَ على أَكتاف السياسَة ..

آه من السياسَة و المُتاجرونَ بهَا من أَطباء ..

أتعبهُم منصب وزير الصحة ، يَطُوفون حَولهُ كَأنهُ كَعبتهُم و يتَهافتون إليه كَأنهُ مسعاهُم ، لو استَطاعوا أن يسحَبوا من دمَائهم و يضَعوا في عُروق هَذا الكُرسي لفعَلوا ، أكثرُهم مُدخنين و سكيرين و قُلوبُهم مُتحجرة بل أشَدُ قَسوة قد نُحتَ عَليهَا :

ـ فَات الميعاد ..

و الله نَحنُ لا نَعرف من الذي فَاتهُ الميعاد ، أَنحنُ أم هُم !؟ ، لا تسَأل عن المشَاعر يا حُب ، كَيفَ تَسَأل عن طَبيب يُشَرح الأجسَاد المَيتة من غَير أيّة شَفقة ! ..

كَيف تُؤمنهُ على منصبٍ أو جسَد؟ على مَا يبدو بأنَ الأجسَاد المُمزقة في المشَرحة، كَان اللهُ في عَونهَا، ومن المؤكد أن مُعدات التَشريح أخذت منهُم حَيزاً من الشَطب والكَسر و التَجريح و التَهميش و غَير ذَلكَ من إجرام بحق الأَموات برعَاية وزارة التعليم و وزَارة الصحة ..

لعَنة الله على الوزارَتين لأنَ لأولى أكبَرُ مَكراً من الأُخرى ، طَبيبُنَا الفَذ منذُ الصغر نَفثوا في عَقله حُلم الطب ، و

المسكين لم يدع كتَاباً إلا و التَهَمهُ فنَقيق أهل البيت من أب لص و أُم سَقطتَ ظُلماً في حُضن رَجُل اقطاعي ، جَعلَ من طَبيبنَا محراثاً كَي يَحفظ من غَير أن يَعي ، فمنذُ الصغر و الأَهالي يتَراكضونَ على أن يَدخُل ابنهُم الفرع الذي يُريدون ، و الطفل يَتشَتت بين إبداعه و بين رغبة أهله فَتضيع الفكرة و تَقع الحسرة و نُعلق على باب بيته :

فاشل بامتياز ..

نَقضي على القنابل الابداعية بالجري وراء شَهواتنا و مَطامعنا ، كُنَا نَظُن بأنَ أعلى طَبقة في المُجتمع هُم السَادة الأطباء ، انكشفَ الكَذبُ و كَانَ حَقاً لزاماً على القَلم أن يَكتُب قَبل أن يَجفَ الحبرُ و تُحَلق رُوح الكاتب إلى بارئهَا بأنَ هَذه الطَبقة البرجوازية هي أقذر طَبقة في المُجتمع ..

طَبقة التباهي و التَبجُح و عَرض الشَهادَات و هَلُمَ جَرا ، حمَار و وَضَعوا لهُ رقعةً كُتَبَ عَليهَا :

الدكتور فُلان الفُلاني ..

طبيبات بسن أبنائي الذينَ ألقيتُ بهم في أَحد بيوت الخَلاء الأوروبية يتَجولنَ و يتَضَاحَكنَ و يَتَصكصكنَ في مَمَرات المشَافي و معابر المُستوصفات ، طَبقات من الكريمَات قد دَهنَ وجوههنَ و طلاء الأظافر يُغطي نَقصَهُنَ ، مَراييل بيض تُغطي أَجسَادهن المَائعة المُميعة ، صُدورٌ مَفتوحة و مَفتولة للمُراجعين كَأنَ الحَياء دُفنَ مع ابن سينَا ، و مُجوهرات و مُقتنَيات تَلمعُ و تَبرقُ أَمَامَ أعين من يسَيلُ لُعابهُم لرَغيف خُبز ، و مَراكَب لآخر مُوديل لهَذه السَنة تَصطف في كَراج المَشفى ، و إذا أتَت سَيارة إسعاف فَلن تَجد مَكَاناً لتَصطفَ به ، يَصرُخ مُرافق المَريض هَذه السَيارة لمن يا حَيوان ! ، يُجيب سَائق سَيارة الإسعَاف :

هَذه للطَبيب فُلان ..

و لكَأنَ سَاحَات المستشفيات خُصصت للصوص الإنسَانية ، أطبائنَا بضَاعة مُستوردة بالتَبجُح و التَكبُر ، أمضوا حَياتَهُم في الحفظ و تَحصيل النقاط الدراسية ليسَ حُباً بإنقاذ البَشَر لا و الله ، بل من أَجل أن يُقال عنهُ :

طَبيب العَائلة الفُلانية ، و قد قَيل ..

يدخُل طَبيبنُا إلى الحَياة العَملية بَعد أن قامت الدُنَيا و قَعدت بتخرجه ، و صُنعَ لهُ اسماً عُلقَ على أنظار البشَر للتَفاخُر و التَبجُح ، يمشي كَنعامة هَبلة في أول رحلته مع الطب ، يُفتشُ الغُرف في المُستشفيات عن بقايا ألم و كَأنَ حمارنَا لا يعرف بأن هَذا المكان فُتحَ لمن معهُ ألم ، و حَتى لا أنسى والذي سَلح أطباءنَا بالوَجاهة، نحنُ كَشُعوب تفشى بهَا الألم لا نَموتُ ألماً ، إنَما نُصَابُ بسكتات فَشَل ، فَنموت قَهراً ورفساً من هَذه الحَياة التي رَمت بمبدعينَا خَارجَ الوَطن و جَعلت من الوَطن حَقل تَجارب بين مفكي أطبائنا أصحاب القَامات القصيرة التي طُولهَا كَطول جَزمة عُمَال النَظَافة ..

أطباء مَمسوخينَ الهيبة ، يُرممونَ فَشَلهُم و علمهم الذي توارثوهُ من الكُتب القَديمة الذي لا يَجرأُ أَحدهُم على اكتشَاف دَواء لأَي مَرض بشموخ أُنوفهم المَسدودة بالديدَان ، ثُمَّ يَأتي فَأر الحَقل بمريوله الأَبيض يأُمر و ينهى كمَا يحَلو لهُ ..

آآآآه يا زمن ، لعنة الله على الحمار الذي جَعلهُم يُقسمونَ على الكُتب المُقدَسة ، ويَتجولونُ بينَ الأقسَام كالأقزام و

يُعالجونَ أجسَاداً هي ليست بحَاجة إلى أكفهم النَجسة بل بحاجة إلى :

كَرامة ..

كَرامة لا يَعرفُهَا من ابتاعَ ضَميرهُ في مَشرحة عَربية و لا في مشفى حُكومية و لا حتى في سيارة إسعَاف ..

أطباؤنَا غَير .. اشتَري وَاحد و خُذ الثاني مَجَاناً ..

مُنافقونا ..

خَير مَا غُني لهُم هُوَ صوت كَوكب الشَرق أُم كلثوم حَيثُ تَساءلت :

مَا خَطرتش على بالك يَوم تسأل عني !! ..

السَيدات و السَادة ، يا من أَقصدكُم في هَذا العَمل الأنيق الذي يَليقُ بأسمائكُم التي يسيلُ منهَا ثَاني أُوكسيد الفَسَاد ، فعندما عَلمتُ بأنَ الإنسَان سَيعيشُ حَياة وَاحدة ، و بعد مَا حَاولتُ أن أَختلطَ بكُم في محَافل الأسَافل ، جَلستُ مع نَفسي التي تُشبهني ثَلاثة أيام بلياليهنَ ..

أُعيدُ الذَاكرة إلى تلكَ الأرض التي أَنجبتني ، بل التي لطالما قَالت لنَا :

- يلي بشلح ثُوبو بيبرُد ..

خَلعتُ دمَاغي في أَول حَفل حَضَرتهُ في السَفارة المصرية في العَاصمة النمساوية فيينَا ، فَكنتُ أقرأُ عن تَاريخ الفَراعنة حَتى وصَلتُ إلى قنَاعة بأنهُم انقَرضوا كُلياً ، كَانَ مَكتوباً على باب السَفارة :

ـ أضغاثُ أحلام ..

فَصُدمتُ بأول خَبر يلوحُ لي بأنَ الفَراعنة لا زَالوا على قَيد الحَياة ، و لكن قَد أسلمَهُم الفسَاد سَفارات في البُلدَان الغَربية ، و عندما داست قدمي التي كَانت تَمشي على أرصفة الوَطن العَربي الغَير قَابلة للإصلاح ، ترتجفُ قَدماي على السجاد الأحمر و السَلاسل الذَهبية التي تُقَيد أطرافهُ ، وبحارس أصلع عَريض فَكهُ كَفك جمل و رَأسهُ كَرأس دُب الباندا و كَرشهُ جَعلني أَشُك به هَل هُوَ بَمعي وَاحدة أم بسَبع أمعاء ، بصوت خَشن كَأنهُ آلة قَطع أشَجار :

دنتهَ شَرفتنا يا بيه ..

تَسمرتُ في مَكَاني أبحثُ عن البيه الذي يَقصدهُ ، التَفتُ يَمنةً و يَسرى و لكن لا أَحد ، نَظَرتُ إليه و ابتلعتُ ريقي :

هَل تَقصد أنَا يا سَيد **!؟** ..

سعَلَ سُعالاً خَفيفاً في نَظَره و كَانَ في نَظَري سُعَالاً كصَوت عجل مربُوطة عَيناهُ قَبل الذبح :

ـ أيوه يا بيه أنتَ ..

لملمتُ شَتاتَ ريقي في حلقي و ازدرتهُ بعجل و تَشَكرتهُ ، و تَركتهُ خَلفَ ظَهري وَاقفاً مُتَصَلباً كأبو الهَول ..

كَانَ الممرُ عَريضاً كَمَمرات قَصر الأوبرا في فيينَا ، يَكفي لثَلاثَينَ عَائلة من العَائلات التي تَقطنُ مَقابر القاهرة ، و صُور الأهرامَات و التماثيل التي لم تُسرق و لم تُباع تُطوقُ الجُدران ، رَائحة فسَاد يتدلى من ثُريات المَمَر تُضيءُ حُمرة السجَاد و لمعة السَلاسل المُذَهبة ، تَشعُر بأنَ هَذا المكَان مصَيدة لمن أرادَ أن يستقصي عن جُمهورية مصر العَربية ، أُبهة ما بعدهَا أُبهة، فالمسَاحة تَتَحدثُ عن ذَاتهَا لوَحدها ، لم أرتَدِ الثَياب الرسمية لهذا الحَفل الأدبي و لا رَبطة العُنق و لا رششتُ عطراً على جسدي ، دَخلتُ بطَبيعتي كَي لا تُنكرني إنسَانيتي حتى وَصلتُ إلى صَالة الحَفل ، دُهشتُ بمنَ فيهَا حَتى تَشَردَقَ ظَلامُ الفَاسدين أمَام مَشَاهد عَيني :

يا نهَار أبيض ..

و لكنهُ نَهارٌ أسود بامتياز ، يا للهَول يا أبو الهول ، نَظَر الجَميع إليَّ نظرة غَرابة ، ولكَأنهَم يُفتشونَ عن شَخص فاسد مثلهُم ، كُنتُ مُرغماً على أن أبتسمَ لهُم رُغماً عن أنفي حَتى

أكسر عُيونَهُم التي أرى تَحتَ أجفانهَا دُوداً يأَكلُ بعَضَهُ بَعضاً و يَترقبُ مَوتَهُم ، أُريد أن أَعرف كَيفَ ستَشطرُ الديدان تلكَ العيون ! ، و هَل يَلتمهونهَا بالشَوكة و السكين كمَا يأَكلون ! ، أو سَيصنعُ لهُم حَفل كَهذا الحَفل يَجتمعُ حَولَ جُثثهم كبار الديدَان من أُمة جَوف التُراب ! ، هل ستأكلُ لُحومهُم المَحشُوة بالحَرام مع النَبيذ أو مع الويسكي أم مع العرق ! ، بدأتُ أُؤنبُ ضَميري و أصرخُ بصمت :

مَا الذي أَحضَرني الى هُنَا !؟ ..

تَباً لهَذه الشُعور المَصبوغة و العيون المَمسوخة المُتَخفية بعدسَات لاصقة ، أَجسادٌ عَربية مَعروضَة للشَهوات مَقسومة على حَسب الرَغبة ، كُلٌ لهُ حصَتهُ في اللحس والمسَح ، صُدورٌ فرعونية مُنقَبة بالمُجوهرات و الذهب ذات المَاركات العَالمية وظُهورٌ عَارية مُفرغة مُتفرغة للشَم و الضَم ، و رجَال شَتى مُتنكرينَ بالزَي الرَسمي و النَظارات الشَمسية خَوفاً من النُور ..

هُم الذين لا يَعقدونَ صَفقاتهم إلا تحتَ الظلمات الحَالكة ، صَفقات ببَيع وَطن أو تَاريخ أو ضَمير ، في هَذا المكَان

على مَا يبدوا، كان الجَميع قد استَبدلوا ضَمائرهم بضَميرٍ صيني تَقليدي تمت صناعتهُ في معامل الخيانة العَربية ، أرى بَريق الخَواتم الذَهبية في أصابع أبناء الحَرام و الحَلق الممشوق بياقوت كُنتُ أراهُ كدعاية في الصُحف العالمية في الأرصفة الأوروبية ، هُنا من الوَاجب عليهم أن يَبتسموا و يُكشروا عن أنيابهم حتى نَشتم رَوائح أفواههم النتنة ، بتُ أتساءل أين أجلس بينَ أكوام اللحُوم المشبوهة المُصطنعة التي ينزلقُ منهَا زَيت الغَضَب ! ، كَيفَ سَوفَ أختلطُ بهم فَأنَا الذي أنجبتني أُنثى كَانت تَعجنُ العَجين فجراً و تَخبزُه عندَ طُلوع الشَمس و تُقدمُ لنَا اللبن الرائب صَباحاً قبل الذَهاب إلى المَدرسة و تَقول لنَا قَبل أن نُغادر البَيت :

إياكُم و الحَرام ، فَهذا البيتُ لم تَدخُلهُ لُقمة وَاحدة من الحَرام ، حَذاري .. حَذاري من أَعراض البَشَر ، فأعراضنا دَائماً مصُونة بخَوفنَا من الله ..

رَحلت الحَنونة إلى الدار الآخرة و بَقي كَلامُهَا يَهزُ ضَمائرنَا، كُلَ مَا خَرجتُ من بيتي أسمعُ ذلكَ الصَوت

المَجبول بتُراب حَوران يَتأرجحُ في ضَميري ، كدتُ أن أقولَ لهَا:

أُخرجي يا يُمَّة من قَبرك و تَعالي شُوفي اللحم الحَرام الذي ارتوى من ضرعي الفسَاد كيف يترنحُ كَالجلي أمَامي .. أنقذيني يُمَّة ..

مُنافقونا ..

(من برا رخَام .. و من جُوا صَخام) ..

مَثلٌ لا يَعرفهُ أحدٌ إلا من عَاشَ هَذه العبارة بكُل حيثياتهَا ، نَحنُ أُمة تَجذبُنَا عسولة الحَديث أَكثر من المُتَحدث ، تَأُخُذنَا حَمية الحمَار إذا شَاهدَ مَعلفَ الشَعير ، و نَروحُ نَتخبَطُ عَاطفياً نُريدُ أن نُغَير مَا بأنفسنَا ، و لكننا نَصطدمُ بالوَاقع ..

أُمة من ورَق المَاضي فقط ، الجَديد مُلوث بالكَراهية و الدماء و الشَحناء و الفُرقة ، تَجمعُنَا المَقابر فقط و القاتل و المَقتول من بَني جلدتنا ومن إنسَانيتنا ، فنحنُ ولله الحَمد لدينا صُكوك شَهادة نُلقبُ قتلانَا بالشُهداء ، و لكن أيُّ شُهداء؟ فَنحنُ لا نَعرف و لا نُريد أن نَعرف ، القَضية كالتالي :

نَحنُ عندنا شَماعة لكُل حُزن ، إذا فقدنَا قَتيلاً نُطلقُ عَليه لقبَ شَهيد ، فَالشُهداء في ظَننا هُم في نَعيم ، و على ما أعتقدُ بأنهُم في جَحيم لقول النبي مُحمد :

القَاتل و المَقتول في النار ..

قيل يا رَسول الله : هَذا القاتل ، فما بال المَقتول !

قَال : إنهُ كَانَ حَريصاً على قتل أخيه ..

نَحنُ أُمة الدم و القتل و فُنون الفُرقة و الذَبح ، أُمةٌ (من برا رَخام و من جُوا صخام)، جعجعتنا على المنابر و المَنصَات و الجَامعات و دور العبادة كُلهُا تَدورُ حَولَ السلم و ما يَجولُ حَوله من احترام الرأي و الرَأي الآخر ، و عندما نَرتَطم بالوَاقع و الحَياة اليَومية كُلُ حَزب بمَا لَديهم فَرحون ، انهُ طَبعاً فرحٌ مَأجور مُعبأ ومُغلفٌ ومُصنعٌ في مَزابل الانحطاط و التَخلُف ، و مع أنَ في نُصوصنا و بينَ دَفتي تُراثنا العَقدي :

إنَ الله لا يُغَير مَا بقوم حَتى يُغيروا مَا بأنفُسهم ..

فَلا تُغريكَ الشعارات لأنهَا عَقائد لا تَبلغ الحُلقوم ، و إن بَلغت فإنهُ النُضوج المُنَافق غير المُسبق ، فَكُل الذينَ حَذرونا من طَريق السُوء كَانوا و لا زَالوا أهل السُوء والكَراهية ، فَوقعت الأُمة بتخبُط مَرير بمُجرد أن كَانَ اسمكَ يُشابهُ الاسم المَبني للكَراهية فإنَ الذَبحَ قرارُكَ و القُبورُ دَاركَ ..

خُذ مَثلاً من مشَهد مصور للحَضيض ..

عمائم مُلونة شَتى و طَيلسانات بأشكال عدة تجتمعُ كل عَام برعاية مُلتَقى الحَضَارات كَي تَتَقارب وُجهات النَظر و بأنَ الرسَالات كُلُهَا تَنصبُ في وَاحةً وَاحدة ، ألا و هيَ وَاحة القُرب إلى الله ، و لكن قُربٍ عن قُربٍ يختلف ، طَائفة عن طَائفة تُقرف ، قَرف مُتفاوت الروائح و الأطعمة و الأذواق ..

و مع العلم بأنَ الذينَ يَطبخونَ طَبخة الكَراهية هُم من سَلمناهُم سُلم عقائدنَا من غَير أَي وَعي مع مَشروب عدم تشغيل العَقل ، أعداء و تجار الإنسانية الذين يأكلونَها ، ونَحنُ الشُعوب من يُنظف الصُحون ..

وَجبات جَاهزة مُعدة للموت و المَقابر و الديدان ، لَعل المَوت هُوَ أرحم من هَذه الحَياة التي يَموت بهَا الإنسَانُ مَرتَين ، مرةَ ذُلاً على أيَادي سُراق الكَرامة و الأُخرى فراقاً في مَذبح القدر ..

أقذر مَوقف للحضيض عندما ذَهبتُ إلى جمهورية مصر العَربية لعمل مَا ، نَزلتُ في أَحد الفنَادق الثلاث نُجوم، فأنتَ في وَطن النُجوم التي يُهانُ بهَا البَشر لعدم وُجود النُجوم

على كَتفه أو في حسابه البنكي أو على رأسه ، و في الأغلب أنتَ مُهان لأنَ أولاد الحَرام لم يَدعوا لأولاد الحَلال شَيئاً كَمَا كَانت تَقول لي أُمي ..

في الطَابق الخَامس كَانت غُرفتي مُطلة على دَار للمُسنين ، و كَان بَرنَامجي أن أزورَ قسم الآداب في جَامعة الأزهر طَمعاً برؤية كُتَاب هَذا البلد ..

كُنتُ أجلسُ على البلكونة و أُشَاهدُ مَصَارعَ المُسنين ، فكَانت هُنَاكَ عَجوز تَجلسُ أمَام البلكونة التي تُواجهُ غُرفتي ، أُشَاهدُهَا تَحملُ الكُتب و تَجلسُ و تَقرأ من غَير أي تَوقف ، لَقد شُدَ قلبي لأعرفهَا و لكنَ الوَقت كَان قَصيراً في ذَاكَ اليَوم لأنَ إحدى الأدَيبات سَوفَ تُلقي مُحَاضَرة و أنَا بأمس الحَاجة لأتعرف على طَبقة الأُدباء في الأزهَر ، خَرجتُ مُسرعاً إلى الجَامعة مع بعض الأصدقاء ، دَخلتُ إلى رواق الجَامعة كَانت رَائحة المَاضي قَوية جداً تُشعرُكَ بأنَ من هُنَا سَار العُظماء أمثال طهَ حُسَين و نَجيب مَحفوظ و غَيرهم من كبار الأدباء و العلماء وأصحاب الفَضل ، دَخلنَا إلى مُدرج

الجَامعة كَانَ هُنَاك كَثير من الطَلَبة و غَير الطَلَبة و الجَميع جاء لسمَاع المُحَاضرة للدكتُورة فُلانة الفُلاني ..

دَخلت الهَانُم إلى المُحَاضَرة و وَقفَ الجَميع و كَانَ التَصفيقُ حَاراً جداً إلى دَرجَة أن أعظمتهُا في قلبي و قُلتُ في نَفسي على مَا يَبدو بأنهَا أحد عمالقة الأدب في هَذا البلد ، سَمعنا للمُحاضرة و كَانت من أَجمل ما سَمعتُ ، و قبل الانتهَاء خَرجنَا لَنحظى بمُقابلتها و فعلاً التقينا بهَا و كُنتُ سَعيداً جداً لأَنَني تَلقيتُ دَعوة ليكونَ بيني و بَينها عَمل مُشترك ، و عُدتُ عصراً إلى الفُندُق كَي أُريح جَسدي ، دَخلتُ إلى غُرفتي ولكن عَيني سَقطت على تلكَ العَجوز التي لا تَمل و لا تَكل عن القراءة ، هَمَمتُ بزيارة الدَار في صَباح يَوم غَد طمعاً برُؤية تلكَ العَجوز ..

و فعلاً جَاءَ الصَباحُ كَأنهُ هَمزة وَصل لمُسَلسل الحَياة ، ارتَديتُ مَلابسي و ذَهبتُ إلى مَأوى العَجزة :

ـ هَل أستَطيع زَيارة العَجزة !

ـ أنتَ لك حد هنا يا فندم ..

ـ لا أبداً و لكن أُريد رُؤية عجوز تَعيش في الدُور الخَامس تجلس دَائماً على البلكونة تَتَصَفح الكُتب ليلاً نهاراً لا تَكل و لا تَمل !!

ـ آه مَعرُوفة جداً ، حَضرتك بتَعرفهَا شَخصياً أو تَعرف بنتهَا الدكتورة فُلانَة الفُلانية !! ..

سَمعتُ اسمَ الدكتُورة التي حَضرتُ لهَا يَومَ أمس و وَقع قَلبي يبكي كَأنَكَ ألقيتَ بي من عُلو شَاهق ، و خَرجتُ من غَير أن أصعد إلى تلكَ العَجوز ، أمشي في الشَارع أضربُ كَفاً بكف ، أخرجتُ هَاتفي المَحمول و كَتبتُ للدكتورة :

أنَا سَوفَ أعتذر منك أُستاذة ، لن أستطيع أن أتعامل مَعك أبداً ، أرجو أن تَتَقبلي عُذري ..

يا جَماعة مُنافقينَا من برا رَخام و من جُوا صَخام ، مُنافقينَا غَير ، الله يَلعن أبو هَذه الحَياة التي جَعلت من فقد قَلبهُ نَاصحاً أميناً ..

مُنَافقونا ..

هم مرهمُ المُعامَلات المُعقدة إذاً أُغلقت كُل المَنافذ .

يا حَبيبي لو تَراهُم إذا سُدت في وَجهكَ أبواب السَماء و الأرض ! ، فالحَلُ و كُل الحَل بأيديهم و في روَاية أُخرى بأرجُلهم ، و يَقولُ المَثل الآني :

ـ و فَوقَ كُل مُنافق فاسد هُنَاكَ أَخطبوط أشَدُ فسَاداً .

تنتقلُ عَدوى الفَسَاد من جيل إلى جيل ، تنحدرُ مع النُطف من ظَهر إلى ظَهر ، و تَنصَبُ في الأرحَام مُخترقة كُل صلاح هَذا الكَون ، و يأتَي (الفهمَان) ليقولَ لكَ :

ـ سُبحَانَ الله ، شوكة خَلَّفت وَردة ، أو العَكس ..

بطَلنَا نَعرف مين خَلف مين ، فالمُهم أن سلسلة الفسَاد بَاقية و تتمدد ، و كُلمَا تَقدَم سننا كمَا يتَقدمُ سنَ مُنَافقينَا ، نَعيشُ لحظةَ النَدم و نَقول :

ـ الله يرحم تلكَ الأيام ، كَانت أيام خَير و بركة .

نعم كَانَ الفَسَادُ في تلكَ الأيام يَركبُ على الحمير و البغال ، و يَصعد الجبال يرعى مع الغَنم ، و يَجول الصَحاري كَي

يصطادَ الأرانب و الغُزلان ، و تَمددَ الفسَاد حَتى أصبحَت لهُ أرقامه السرية ، و حسَاباته البنكية و فيلاته على الجبال الأُوروبية ، حتى أضحت أحَلامُنَا تَدورُ حَولَ مَحض كذبة نَحنُ خَلقنَاهَا كَي نُرممَ تَعاستنَا بعبارة :

ـ الحَرام يَذهبُ هُوَ و أَهلهُ ..

لم أرَ الحَرام يَذهب أبداً ، أصبح أهَل الحَرام لهُم آبارُهم النفطية و لهُم مُفتي يُفتي لهُم عَلى مَقاس فَسَادهم و بَيعهم للبُلدَان التي تُجاورهُم بَيعة عرض و أرض أخ لعدو لهم و لأَخيهم ..

و من قَالَ بأنَ إخوةَ يوسُف قد أفنتهُم كُتب الأيمان ، بَيعت كُتبُ الايمان للحُكام وأنجبَ إخوة يَوسُفَ حُكَاماً و قَادة هُم أَقربُ إلى أبي لهَب نَسَباً و صهراً و حرباً ..

فَأمَا سلماً فهَيهَات أن تَرى سلماً ..

بَيعت أحكام الله و بَقي التُراث يُطَافُ حَولهُ كَأنهُ صَنم يَلعنهُم و يَشتُمهُم لَيلاً نهَاراً ، حجَارة سوداء تعَالت و تَزينت ذَهباً لله و العَبيد و النَاظرين ، يزحفُ آلاف المُنَافقينَ من بني

جلدتنَا قَاصدينَ أمَاكنَ الوَحي ليطوفوا به و ليطهروا من نفاقٍ دَامَ أعوام مَديدة و حَياة سَوداء و في ظَنهم سَعيدة ..

و يَعودونَ إلى ديارهم أنقياء أتقياء كيوم وَلدَتهم أُمهاتُهم ، يسرق و يَكذب و يَغش و تَسيرُ تَحتَ مكتَبه المُعامَلات المَشبوهة و خَلفَ القُضبان مئات المظَاليم مُدرجونَ تَحتَ اسمه ، و عمليات نهب و سَلب و ظُلم ..

يذهبُ برحلة من بَلده بشَركة طَيران خمَس نُجوم و نصف ، و يخَلعُ ثَيابهُ يلبسُ البيَاض و يُحرم في أَرض الحَرام ، لا يَحلقُ شَعرهُ أسَبوعاً كَاملاً ، يَختنقُ إن نزلَ إلى الشَارع ، الحرارة أقل بَقليل من نَار جَهنم ، كُل شَيء مَحجوز لهُ على حَسب رُتبته في الفسَاد و على حَسب إنزال النَاس منَازلهم و على حَسَب نفاقهم ، و حَتى في يَوم عَرفات يَوم الخَشية و الدَعوات تُقدَم الرؤوس إلى الصَف الأول كَمَا تُقدم الأسَماء المُلمعة بأكَل مَال الحَرام إلى المنَاصب ، يَصعدُ مُفتي أعمى وأعور وجهَهُ كَوجه الدجَال الأعور يَنصَحُ الأُمة ليكشف الغُمة ، يَخطبُ بصوت ركيك يُدخل العبارات ببعضهَا البعض ، تُحسنُ مَافيات الصَحراء و تُجار الله اختيار

خَطيبها و مُفتيها ، يأمرُ و يَنهى و يُجلجلُ بصَوت مُتقطع وكَأنهُ يَقولُ لكَ :

ضَع الكَلمة المُنَاسبة في المكَان المُنَاسب ..

و الناسُ في تلكَ اللحَظات سُكارى من حَرارة الشَمس و صَخب الأصوات و اللغات التي لا يُعقلُ منهَا شَيء ، و إذا كُنتَ وَلياً فأفهم يا هذا ، الشُبان ١٠% ، و الكبار ٩٠% ، و الصَالحُونَ ٢٠% ، و المُنافقونَ ٨٠% ، و يَقولونَ بعد ذاكَ اليَوم الجَلل :

ـ لمَاذا لم يَستجب اللهُ دُعاءنَا ..

ضَحكَ قَلمي بعدَ هَذا السُؤال ، و لم ينتبهوا بأنهم كَانوا يدعونَ على بَعضهم البَعض ، كَيفَ للفيف من الفَاسدينَ و المُنافقينَ و الكَاذبينَ و أولاد الحَرام و أصحاب غَسيل الأموال و تجَارة البَشَر أن يَصلوا إلى هَذا المكَان ..

إنهُ المكان الوَحيد لتَلميع النفاق ، ذَكرتني هَذه اللمعة بلمعة حذائي الذي أرتديه في أحد مَحافل النفاق و مُؤتمرات الفسَاد عندما أذهبُ إليهَا رُغماً عني ..

يحلقُ رَأسهُ بَعد يَوم النَحر ، و يَرجمُ إبليسَهُ و يتناسَى بأنهُ هُوَ أكبرُ من إبليس و أعظم من بنيه و أحفاده العَفاريت ..

عفريت على شاكلة إنسَان ، دمهُ حَرام و مَالهُ حَرام و ضَميرهُ حَرام و قدَ غُذي بالحَرام و من صَلب ابن حرام ، و يَنتهي من شَعائره ظَاناً بأنهُ قد غُفرَ لهُ ما تَقدم من ذَنبه و ما تَأخر ، تُجهزُ لهُ أعلامُ أولياء الله من أول الحَي إلى عَتبة دَاره ، و تُشعل الشُموع و الفوانيس عَابرة الأعمدة الكَهربائية ، و تُنَارُ الأضواء بَهجةً بقدوم أحد مَافيات المَدينة ، و تُعزَفُ الأنَاشيد و العَراضَات و تَتَهاوى حَرامية البَلد من كُل حَدب و صَوب ، الجَميعُ مُبتسم لذلك اللص الخَطير الذي في عُنقُه مَلفات سَوداء و أرواح مُعلقة في الخفاء ، دُهنت جُدران الأزقة باللون الأخضر و كُتبَ عليها مدحٌ للحُجَاج وترحابٌ لضيوف الرَحمن ، يَقفُ أمَامَ بابَ الحَي و تَقفُ مَعهُ الطُبول والمزامير تَقرعُ لدى قُدومهُ الذي جَاء به للتو من بَطن أُمه مُعافى سَليماً بلا ذَنب و لا عَيب و لا جُرم ، تُوزعُ سُبُحات بحَباتهَا المُختلفَة على الحُضور ، و يُسقى مَاء زَمزم لمَن تَبركَ بَصَاحب الوَجه الصَبوح ، و يَبقى الزمنُ

يُكررُ الحَدثَ ذَاتهُ في كُل عَام حَيثُ يَكتُب القَلم في لَحظة لا يَعرفُ بهَا النَدم :

مُنافَقينَا إيمَانهُم لا يُضَاهيه إيمَان، و الله يا عَمي غَير .

مُنافقونا ..

خَير مَا قيلَ فيهم عن ذَلكَ الإنسَان الذي لا يَصلُح أنَ يَكونَ خَليلاً :

و الله لَو صَاحبَ الإنسانُ جبريلا ..

لا يَسلم المرء من قَال و من قيلا ..

قد قيلَ في الله أقوالاً مُصَنفةً ..

تُتلى إذا رُتلَ القُرآنُ تَرتيلا ..

قد قيل أن له ابناً و صَاحبةً ..

زُوراً عَليه و بُهتاناً و تضليلا ..

هَذا قولُهم في الله خَالقهم ..

فَكيفَ لو قيلَ فينا بَعض ما قيلا ..

إنهُ وَاقعٌ مَرير قد مَررتُ به في رحلتي الأَدبية في الدُوَل الغَربية ، مَصَائد و مَكَائد تُحفرُ آناء الليل و أَطراف النهَار ، و حقد و حَسد و غَير ذَلكَ من أمراض حَمَلهَا معَهُم العَرب

من أَرض النفاق إلى بَلاد الحَضَارات ، أصبحتُ أخشَى من أَي أَحد يَأتي إليَّ و يَقولُ لي :

ـ يا أبا سَعد أُريدُ أن أَتخذكَ خَليلاً !! ..

أَغرقُ بحَالات التَعجُب و كَثير من الأسئلة تُرَاودني و تَلطُم بي في خِضَمّ هَذا المَد العَربي الذي قَدم قَبلي و بعَدي إلى أُورُوبا :

ـ مَاذا يُريد هَذا مني !! ..

لا يَجبُ عَليكَ أن تَتَسَاءل ، و لكن من المفروض عَليكَ أن تَعرف مَا يُحَاكُ حَولكَ من مُؤامَرات أُناس نَقلوا مَعهُم مَرض الشَك و الرَيب و أَمراض الحقد و الحَسد ، خُذ مشهداً مُصَوراً على قلة الحَياء و الضَمير ، مَشهداً ليسَ ببعيد ، مَشهداً مَبني على المَصَالح الشَخصية التي أَكلوا صَاحبهَا لَحماً و أَلقوا به عَظماً ..

هَاتَفني أَحد القُراء :

ـ مَرحَباً أُستَاذ ! ..

و مَع أَنَني أكرهُ وَصفي بأُستَاذ ألا أَنني ابتلعتُ مَا وَصفني به في جَوفي مُضمراً لهُ إياهَا ، و أيُ إضمار ذَاكَ الذي يُنشدُني به :

ـ أهلا و سَهلاً عَزيزي .. أَرغَبُ بأن تَقولَ لي أبو سَعد حَاف ، فأنَا لا أُحبُ المُقبلات ..

ضَحكَ حَتى بدَت نَواجذهُ كَمَا تَراءى إليَّ من خَلف السمَاعَة ، و بدأَ يُخفي خَجَلهُ من صَمتي لأَني لم أُبادلهُ الشُعور ذَاتهُ :

ـ و لا يَهمك أبو الزوز ، أَبو سَعد .. أَبو سَعد ..

جَميعنا يَعرفُ المَثَل المشهور :

رَكَبناه على الحَمار ، مَدَّ يَدهُ على الخُرج ..

و صَاحبُنَا كالمثَل ، قُلنَا لَهُ لَقبني بأبو سَعد ، دَلعني بأبو الزوز ، و بدأَ صَاحبُنَا يَطمئنُ عَلي و أَحمدُ اللهُ و أَشكُرهُ بعد كُل سُؤال ..

جَميلة الحَركات قَبل أَية شَكوى :

ـ تَفضَل صَديقي ما هي الخدمة التي أَستَطيع تَقديمهَا !

شَعرتُ بأنهُ سَوفَ يَبكي ، يَتَدحرجُ شَيئاً فَشَيئاً ، تُهَرولُ شَهقاتهُ إلى المَدى ، ينَصت لذَاته و يُوبخهَا ، يُؤنبُ ضَميرهُ و يَحشُرهُ ، حَتى خَرج مع تَمتَمته :

ـ و الله مُو عَارف شُو بدي اَقلكَ يا أُستَاذ !! ..

قُلتُ في قلبي ، إذا لا تُريد أن تَعرف مَا الذي سَوفَ تُحدثني به لمَاذا اتصَلت عَلي ، و لكنَني خَرجتُ عن إطَار مَا كَانَ يتَخبطُ به :

ـ تَفضل لا تَخجل أُطلب مَا تُريد ..

ـ و الله يا أبو سَعد هَل سَمعتَ بالمَطعم الفُلاني الذي أُغلق من شَهرين في فيننا ! ..

بدأَتُ أُفتشُ عن اسَم المطعم في ذهني ، لأنهُ ما شَاء الله المطاعم التي أُغلقت في فَترة سَنة وَاحدة أَكثر من خَمسين مَطعم ، و لكن لم تَقُل لي : لماذا ! ؟

ـ حَسناً لمَاذا ! ..

من عُيوننا الضَيقة التي لا تُشبعها إلا الديدان و التُراب ، العيون التي تُشهرُ فَتيلَ حقدهَا للقاصي و الدَاني و تُسنُ

الأفواه بالقَال و القيل حَتى يُغلق صَاحب المطعم مَحلهُ ، مَطاعم كَلفت مَا هَب و دَب كَي تَكبُر في عيون الغَرب و عُيون العَرب ، و لكن ابنَ الحَرام مَا خَلى لابن الحلال شَيء ..

مَثَل مُهم في الحَياة احفظوه جَيداً ..

مُنافقونَ تَجملوا بكُل أقنعة الكذب و الخيانة ، يبتسمُ لكَ في النهار و في المسَاء يَحفُرَ لكَ ألف مصيبةٍ ومُصيبة ، في نَظَره نَجاحُك و عَملُكَ و رزقُكَ هُو أكبر مُصيبة بالنسبة لهُ ، سَيموت غَيضاً إن لم يَرَكَ تتهَاوى بكُل مَا تَملك من قُوة أو إيمان ..

لا تسأل عن الإيمان و الضَمائر يا حبيبي ، فكُلها غَرقت في البَحر عندَ عُبورنا ، لَفيف من الفَشَلة يَحومونَ حَولَ بَعضهم ، لم تَجمعهم كَلمة و لا حكمة و لا عَمل و إنَما جَمعهُم الفَشَل و المَلل ..

المَلل الذي زَادَ من بكَتيريا النفاق و الكَذب ..

دُمرنَا و دَمرَ شباننَا الملل ، لم يَعُد هُنَاكَ ما يشغلهم ، و بالصُدفة اكتشَفتُ بأنهُم مُنشغلينَ بأنفُسهم ، بإعداد الكَذب و النفاق و المُؤامَرات و الخداع ، و قد وصَل الحَال إلى أَحاديث بالتعاطَي و السَرقة في الآونة الأَخيرة ، و لكن عَرفتُ من صَاحب المطعم الذي أُغلق بأنَ حَالتهُ النَفسية سَيئة ، و لكن لم تَقولوا لي لماذا أُغلق ! ..

حَسناً الجَواب سَهل جداً ، لقد تَعرفَ على شُبانَ اقطَاعيين قد وَثقَ بهم ، و دَخلوا مَعَهُ كَشُركَاء ، و عندما اشتدَ عُودهُ و وَجدوا بأنَ إدارتهُ لا يَعلو عَليهَا إدارة ، وَقع الحقدُ والغيرة من الشُركَاء ، و أَخرجُوه خَارج الشَراكة و أَخذوا المطعم ..

لم يَستمر المَطعم بالعَمل لأَنهُم لا يَعرفونَ إدَارة المَطاعم و لا في وُجوههم سحنةُ استقبالٍ للضيف و لا للزبونَ ، انَقطعَ الرزقُ بسبب النفاق الذي قَتلهُم و جَردَهُم من كُل شَيء ..

و الجَميع على هَذه الشَاكلة ..

نفاقنَا يَجعل الجَمل في القدر ، و الرَجُلَ في القَبر ..

مُنَافقونا ..

أهل إيمَان و تُجار بَشَر و لكن بالحَلال ..

و الله لم تُرَ هَذه القاعدة إلا عندنا نَحن ، ونحنُ فقط ، قَطعنا قَارات عَظيمة و مَسَاحات شَاسعة ، قَطعنا الوديان و طُفنَا البحار ، و شَاهَدتُ عادات و تَقاليد و أُنَاس يَعيشونَ حَياتَهُم بكُل جَمَالهَا و بَسَاطَتهَا و فَقرهَا و غناهَا و لم أسَمع بأنَ المَرأة تُباعُ و تُشترى أبداً إلا عندنا ..

أعتَقنا اللهُ من العُبودية حَيثُ كَانت الأَمَةُ تَلدُ رَبتهَا ، و رُعَاة الشَاة مَسَاكنهُم الخيام ، والمَرأة كَانت فيهَا حُرة مُصَان ، حَتى أتَت العُبودية المُقننة تَحت نُصوص فَسَرهَا أهل الفَضل و العلم بإنهَا عُبوديةٌ على مَقاس الصَمت و الدين و الأحكام و العُرف ..

جَعلوا منَا طُبولاً و مَزامير لا تشغلنَا سوى تَسريحة الفَلتان وآخر صَرعَات الفَساتين، جَميل بأن نَبرع بعَرض الصُدور و المُؤخرات المُوحلة بالفَسَاد ..

نعيشُ في كذبة صدقناها ..

أعرفُ أُنثى اسمهَا حَياة ..

أَتت مَع وَالدهَا من أحد البُلدان العَربية في الهجرة الأخيرة إلى أُوروبا ، رَاسلتني على أَحد المَواقع قَبل سَنة و نصف ، حَياة من عَائلة مُحَافظة جداً ، تَعيشُ العَائلة في كَبت مُقمع مُنذُ أن تَولى رَب الأُسرة قيادة المَنزل و المُكوث من غَير عَمل في المنزل ..

حَياة تَدرسُ في الجَامعة في كُلية الطب في العاصمة فيينا ، كُل صَباح يأخُذها وَالدهَا إلى الجَامعة و يُعيدهَا عندما تَنتهي و على هَذه الحَالة مُنذُ ثَلاث سَنوات ، وَقعت حَياة بإعجاب أَحد الأَطباء المُشرفين الجُدد في مَشفى الجَامعة ، كَانَ شَاباً مَيسُور الحَال ، خَاطبهَا و لكَنهَا أبت لأَن تَربيتهَا المنزلية تُدلي عَليهَا بأن لا تتكلم مع أَحد ..

حَاولَ الطَبيب مَراراً و تكراراً حَتى وَقعا في الحُب ، و لكَن حُب من خَلف حجَاب ومن خَلف خَوف ، و رَاحت الأَيامُ تَسير و الحَياة تَستمر مَع حَياة ..

يُقال بأنَ وَالد حَياة قد باع مَزرعتهُ و بيتهُ من أَجل الهجرة الغَير شَرعية إلى أُوروبا ، و لكن في رَأسه مُخَططاً يُريد أن يُنفذهُ ، و طَبعاً لدَيه ستة من البنَات و وَلد وَاحد وغصَة الطَريق التي اجترعَهَا و هُوَ في طَريقهُ إلى النمسا ..

أبو حَياة ، و حَياة الله مَا عَليه الطَعمة ..

كَلمة لا يَفهمهُا غَير أَهل حُوران و من اختلط بهم .

لا زَالَ عالقاً في ذهن الرُجَل بأنَ عصمة المَرأة بيده ، و لا يَعلم بأنهَا تَستَطيع بالقَانون أَن تُلقي به خَارج البَيت حَتى لو كَان المَنزل مُلكاً لهُ ، و لكنَ الظُلم مَوجود وأَرادَ اللهُ أن يَنتقم منهُ ولكن بالقانون ..

ذَاكَ القانَونَ الذي قُدست به المَرأة فارتَقت إلى النُجوم كَي تَنجو بَنفسهَا من كَوكب قالت المَلائكة لله تَعالى في وصفه :

ـ أَتجعلُ فيها من يُفسدُ فَيها و يَسَفكُ الدمَاء و نَحنُ نُسَبحُ بحَمدك و نُقدَسُ لكَ ، قَال إني أَعلمُ مَا لا تَعلمون ..

تَقدمَ الطَبيب إلى والد حَياة في الصَيف الفائت ، دَخلَ من الباب لأنَ المثَل المعَروف لَدينَا هُو :

ـ دُق الباب تَسمع الجَواب ..

و في السر كم من نَوافذ اختُرقت وأبوابٍ تسلل في ظلها المخادعون ، لأنَ الممنوع لَدَينا مَرغوب ، وفي النهاية لَدينَا كماشة نُعلقُ علَيهَا عَفننا تَحتَ عنوان :

ـ إنَ الله غَفور رَحيم ..

أشرقت الأنوار ، الدكتور في الديار ، يا حي هَلا بطَبيب الجراحة ، تهلل كُل من في البيت ، إنهُ طَبيب كامل الدَسم ، و هَذا يَبدوا على وَجهه و جَيبه ، و لكنهُ لَيسَ بالخب و لَيسَ الخبُ يخدعهُ ، و استنفَر أهل البيت يُهللونَ و يَمجدون :

ـ شُو تشرب عمي ! ..

ـ قَهوة سَادة ..

تَدخُلُ حَياة على الأَموات من أَبيهَا و أَهل بَيتهَا ، تَحملُ صينية القَهوة ، و تتعثَرُ بالخَجل و الحَياء ، إنهَا الفَتاة التي لا تَعرف من بيتها سوى الجَامعة ، تَصطدم العيون ببعضها و تَتَشَابك القُلوب و لكن بمحرم و تَمتَزج الأرواح من خَلف حجَاب و جلبَاب و أب يُشبهُ الإقطاعيين :

ـ تَفضل يا عَمي شُو طَلبكَ ..

يَضَعُ الطَبيب فُنَجانهُ على الطَاولة ، و يَتدحرجُ خَجلاً كَأنهُ أول مَرة يَدخُل البيوت :

ـ أَنا طَالب يد بنتَكَ الآنسة حَياة على سُنة الله و رسوله ، و أَتمنى أن لا تَرُدني خَائباً ..

يُطرقُ الأَبُ رَأسهُ كَي يُخفي مَكرهُ أرضاً ، يُلملمُ شَتَاتَ سنارته من بعد أن وَقع الطُعم في فم الطَبيب ..

يُفتح البَازَار إن صَح التَعبير :

ـ اشرب قَهوتَكَ دكتور ، و أَبشر إن وَافقت ..

يَشربُ قَهوتهُ ، و تَبتلُ عُروقهُ ، و يطمئنُ قَلبهُ ، و يَثبتُ مَا كَان يَتمناهُ ، ليخَرُج الأب بالبازار :

ـ شُوف يا دكتور ، أهلا و سَهلا فيك ، أنَا كَلفني كُل نَفر من عَائلتي للوَصول إلى أُوروبا يا يُقارب ستة آلاف يورو ، و مع المهر المُقدم خَمسة آلاف يورو أي عَشرة آلاف ، من الآخر عَشرة آلاف نَقد ابنتي ..

يَقوُم الطَبيبُ منُتفضاً من مَقامه ، يَرتَعشُ كَأنهُ أُهينَ في بيته :

ـ خُذوا لي طَريق ..

يَقوم أَهل المَجلس و الغَرابة قد انكمشت في وُجوههم ، لا أَحد يَلوم الأَب لأنَ بيده الأهلية ، يَسقُط قَلب حَياة أَرضاً لتُلملمهُ بالدُموع ، يَخرجُ الطَبيب من بيت حَياة يُلقي بكلمة في أُذن أبيهَا :

ـ انقعها ، و اشرب مَاءها ..

مُنافقونا .. الله لا يُوفقهُم ..

مُنَافقونا ..

كَالإنَاء الصيني من أَي جهةٍ طَرقَتهُ يَرن ..

يَعرف بكُل شَيء ، حَتى بالطب و الفَلسَفة و الفَلك ، مُثَقف مع المُثَقفين ، و جَاهل مع الجَاهلين ، نَسيت أُمهُ أَن تُطلق عَليه :

أَبو العُرّيف ..

لَفيف من قُطَاع الطُرق على الطَامحين و المَساكين ، يَجتمعون كَي يُسقطوا الآخرين ، رَأيتُهم منذُ أن عَرفتُ كَيف أَنطقُ كَلمة :

مُنَافق ..

لم أَعرف مَا هُوَ الرَابط بينَ الاسم و المُسَمى ، و بينَ الصفة و المَوصُوف ، تَصورتُ في ذهني كُلَ شَيء إلا شَيئاً وَاحداً ، أَن يَكونَ عَريف الصَف ابن أُخت مُديرة المَدرسة ، نَمت في ذهني كَثير من الأَفكار حَتى ضَحكتُ من الرَواسب التي عَلقت في دمَاغي ، و لكنَ الزَمنُ يَدور و تَتَكررُ المشَاهد لأن الإنسَان بطَبيعته خُلقَ صَادقاً فَيتعلم الكَذب في أَثناء

الرضاع ، و يَمتلئ بَطنهُ كمَا يمَتلئ عَقلهُ بالقَاذُورات ، فَالمُصيبة بما نزلَ إلى المَعدة سوف تجدُ مَخرجاً تُلقي بهَا بالفَضَلات و القَاذُورات ، إلا مَا تَرسَبَ في الدمَاغ كَأنَ يَكونَ الخَطأ فطرة مَثلاً ، و الجَريمة فَضيلة ، و الحَرام مُباح ، و المُباح خَطأ و هَلُمَ جَرا من مَصَائب لا بُدَ للعَقل أن يأَخُذ حَيزاً من النُور ، و لكَن كُل شَخص يَرى النُور من مجهره ، فَلعلَ النُور الذي تتغنى به هُوَ الظُلمة ، و لعَل العَكس ، مسَاحة كَونية تَتَسع لبلايين البَشَر لا تَستطيع أَن تُفكر بهَا بصوت عَال ، و إلا طَارَ عُنُقكَ تَحت مُسَمَيات عدة كَالدين و القانون و العَادَات و التَقاليد و هَلُمَ جَرا ..

مُسَمَيات و مُسَمى عَليهم بأنَ من خَرجَ عن إطَار الدَورة السَنوية لما تتعامل به النَاس فَهذَا يُطلقُ عَليه بدعة ..

استحدثت شَيئاً و هُوَ في أَغلب الأحوال في البُلدَان العَربية أمرٌ مَرفوض ، مَرفوض قَطعاً ، لأنَكَ في الحَقيقة لو أَشعت الجَديد فَسوفَ تَتعطل مَصَالح القَديم ، و كيفَ لو كَانَ العَقلُ قَديماً ، فمَاذا سَيجري في هَذا الكَون !! ..

تَوقفت شَركة نوكيا لأنهَا لم تَأتي بالجَديد ، بيعَت لشَركة سامسُونج و رَاح ضَحية هَذه الكَارثة آلاف من الشُبان الذينَ يعَملونَ في هَذه الشَركة ، أي عَاطلينَ عَن العَمل ، وهَذا ما سَيحدُث لو شُغلَ العَقلُ في أوطاننا المحشوة بالخُرافَات و الأكاذيب ، تلكَ الشَماعات الإيمانية الخُلبية التي لا يَتجَرأ أحد أن يَقترب إليهَا لأنها في ظَنهم بأنهَا خط أحمر ممنوع الاقتراب إليه !! ...

ما هُوَ في ظَنكُم ! .. الأماكن المُقدسَة التي زدنا في تَرويجها ليغرقَ غَيرنَا بأموالنا ظُلماً و عُدواناً بَغير قَصد ، و لكن كان قَصد الفَاسدين ممن يُروجُ لهَذه الأماكن هيَ أكبرُ مما تتصَور ، غاية في قمة الدناءة و القَذارة لَجمع الأموال و سَلب الحُلي و الذَهب و غَيرهَا من نُذور مُعلقة في أعناق المَظاليم ، مظاليم نحنُ على هَذا الكَوكب لأنَ الجُغرافيا لم تُحسن تَقسيمنا ، قَسمتنا الأفكار العَفنة و الطوائف القَذرة ، والإنسانية مُجردة من النُور وَحيدة طَريدة مَكسُورة مُنكسرة باسم الآلهة ..

أَكبر كذبة شَهدتها العُقول المُخدرة التي لم تَعرف من الله سوى مَقامات الأولياء و دُور العبادة أن تَرى قَرية من بابهَا إلى مَحرابهَا مُوحلة بالفَقر و جَامعهُم الكبير فيه ثُريات و مُذهَبات و لوَحات مَا تَسُد به جُوعَهُم !!

أيّة مُصيبة نَحنُ نَعيشهَا ! ، و مَا هَذا الغباء برب السَماء ! ، و إلى مَتى تبقى العُقول مُقادة إلى دُور العبادة و مَعالم العلم و العَقل مُوصدة و مُقفلة بالخَوف و الرُعب !! ..

دَرستُ العُلوم الشَرعية في دمشق أربع سَنوات في أحد مَعاهدهَا ، كُنتُ أتعلم في مَعهد بدر الدين الحَسَني للعُلوم الشَرعية على أَكابر عُلمَاء دمشق ، و عندما تَسمع بعُلمَاء دمشق تَقف لهُم السمَاوات السَبع و الأرَاضين ..

عَمائم مَلفوفَة ، و جُبب مَحشوة ، و مَراكب بمَاركَات عدة ، و وجوه لا تَرى الشَمس خَوفاً من أن تُصَاب بالسُمرة فَلا يَعُد يَخشَاهَا النَاس ، و فَيلات في أرقى الأمَاكن ، أئمة مَسَاجد قد كَلفت المُؤمنين الغَالي و النَفيس ، بيوت الله مُكَيفة و المَاءُ فيهَا كالبَحر و بيوت النَاس مَقطوع عنهَا المَاء لأنهُم لم يَستَطيعوا دَفعَ الفاتَورة ، اضطرَ المُؤمنونَ أن يَمدوا لهُم

خَطَ مَاء و كَهرُباء بالسَرقة لأنَ الحُكومة في ظَنهم هي أَكبر السراق ، ويلي ما بخاف من الله اسرقوا ..

و هَذا مَا جَرى ، فَسَاد بُني على فَسَاد ، بتُ أسألُ نَفسي كَيفَ حَصدَ هُؤلاء العُلمَاء هَذه الثَروة من مَزارع و سَيارات و مَنازل شَاهقة و مَحَلات !!

لا عَليكَ عَزيزي هُنَاكَ لكُل سُؤال جَواب :

كَأن يَقولُ لكَ : إنَ الله يَرزُق من يشَاء بغير حسَاب

لن تُحَاسب أَحداً فكُل من عَليهَا و فيهَا فَاسد ، سَقطت الثقة عندما قَرأتُ كتَاب ، جَدد حَياتك . للعلامة مُحمد الغَزَالي ، غَيرتُ وُجهتي و شرعتي حَيثُ النُور و العَقل وتَركتُ كَل شَيء خَلفي كَي لا يَضيع العُمر بين كُتب الحَيض و النفاس و القال والقيل و مُجتمع المَرض النَفسي ، ذَاكَ المُجتمع الذي لا يَعرفُ الوَاقع إلا عَبر الأنَا ..

إمَا هُمَ .. و إما لا أحد غَيرهُم ..

لن يَرضوا عنكَ حَتى لو بشَركَ النبي بالجَنة ، و مع أَني كُنتُ بَعيداً كُلَ البُعد عنُهم ، ألا أن شَظَايَا شُرورهم لحَقت

بي تُريد القَضَاء عَلي ، و هَا أَنا أَكتُبُ للتَاريخ و الأُمة والإنسَانية :

نَصيحة و النَصيحة كَانت تُقايضُ بالنعم ، أن لا تُهدي عَقلكَ لأهل الإقصَاء ، أولئكَ المُجرمونَ الذين يَظنُونَ بأن الجَنة في أَيديهم و غَيرهم في النَار ، و لكأنَهُم ضمنوا الجَنة ..

مُنَافقونا لدَيهم صُكوك إلى الجَنة .. لَحق حَالك ..

مُنَافقونا ..

احَتارَ القَلَمُ مَاذا يَكتبُ عنهُم ..

لا يُمكن أنَ نتَحدث عن هَذه الطَبقة أَكثر من اللازم ، يَجب أن نَتوخى الحَذر لأنهم قَالوا لنَا آنفاً :

لا ضَرر و لا ضرار ..

و أَيضاً أرضَعونَا قَانوناً آخَر مُلوناً :

درء المَفاسد مُقدم على جَلب المَصَالح ..

فكَيفَ لو كَان مَن حَولكَ من بَشَر أكبر مَصلحة لَدَيهم هَي أكلكَ لحَماً و رَميكَ عَظماً ، فَلا تَقُل لي هَذا الشَيء غَير مَوجود ، إنهُ مَوجود بكَ و بغَيركَ و حَولكَ ، أَكبر مَفسَدة هَي أن تَكونَ نَاجحاً فَأنتَ في هَذه الحَالة خَطر على البَشَرية ، أَعظم بلاء هُوَ أن تَكونَ كَاتباً فمنافقاً ، الكتّاب الذين ليسَ لهم رَواجٌ في المكَاتب التجَارية سَينهشون لحمكَ ويُبددونَ فكرك و يَجعلونَك عبرة للأَجيال القادمة ..

كَوني أَعيش في طَبقة يُطَلقُ عَليهم اسمُ (كُتَّاب) ، كانَ لزَاماً عَليَّ أن أَقفَ وَقفةَ حَق مع ضَميري قَبل أَن يأتي الأَجل ،

أخشَى من المَوت و قلمي لم يُشفى من الكَوارث التي أراهَا من كُتَاب أوريجنل تَكادُ السُطور تَتَقيأُ من ذكر بعض الأسمَاء من كُتَاب و كَاتبات تَفوح منهُم رَائحة النفاق من مَداخن مُؤخراتهم ، فعندنا و لله الحَمد في طَبقة القلم و الوَرق نفاق بكُل النكَهَات ، لدَينَا كُتاب بكتشَب ، و كُتَاب بميونيز ، و كُتَاب بسَلطة لُبنَانية ، و كُتَاب بمَخلل ، و كُتَاب تَازة ، و كُتَاب قبل بيوم ، و كُتَاب ديلفري ..

عندنا كُتاب ما لا عَينٌ رَأت و لا أُذنٌ سَمعت و لا خَطَر على قَلب بَشَر ، و لا بعقل شَياطين ، رَكزوا معي على كَلمة شَياطين ، عامان من مُخالطَة هَذه الطَبقة المُتَشيطنة و حُروب تُقامُ بينَ بَعضهم البَعض ، بدَأتُ أُفتشُ عن المَصدر ألا و هُو مَصدر الكَراهية ، فوَجدتُ بأنَ الأَقلامُ جَميعُهَا مأَجورة و لله الحمد ..

تَخيل أَن تُؤجر فكَركَ من أَجل دراهمَ مَعدودَات ، مُقابل أن تَعيش حَياة كَمَا يُريدُهَا ضَميرُكَ الذي تَخرُج منهُ رَائحة شواء النفاق ، نفاق لم تَستطع قُطَعان الشَياطين أن تَصل إليه

، هَجرتُ التَجمُعات التي تُقامُ في الغَرب برعَاية الأَخوة العَرب من أَجل شَيء وَاحد فقط .. ألا و هُوَ النفاق ..

كُنتُ أَحلُم بأن أرى كَاتباً وَاحداً فقط ، أُفتشُ بَين مَلامَحهم عن مَسكن حَنان ، أُنَقبُ عَبرَ أَحادَيثهم عن كَلمة أمَان ، أُضَمدُ يُتمي ببلسم جَلساتهم ، أُشعر ذَاتي بأنني لسَتُ وَحيداً و لن أَكُون بَعد أن عَرفتُهم طَريداً ، تَلاشَى الحُلم و تَصَافحت العُيون ، كَانت عُيوناً جَميلة رَقيقة ، لم اَكُن أعلم بأنهَا عدسَات لاصقة ، كَانت الشُعور نَاعمة وحَريرية لم أعلم بأنهَا مَصبوغة بجَميع أَنواع الطلاء ، كَانت الأَسنانُ مُصطفة كَأنهَا سُورٌ منيع بالعَلم ، و لم أَعلم بأنها أَسنَانٌ مُركَبة و طُقمٌ مُلمع في مَخابر الأَطباء ..

ثَياب براقة ، رَبطَات عُنق ، عُطور عدة ، مُجوهَرات و أَتكيت رَفيع المُستوى ، سَيارات في المواقف لمُوديلات السَنة ، المُصيبة ليست في النَعيم الذي يَعيشُه هَؤلاء الكُتَاب ، المُصيبة في الكُتب التي تُكتب عن فَقر و وجُوع و حُروب ..

هَل عَاشَ هؤلاء مَا يُسمَى بالجُوع !! ..

حَضرتُ أَحد النَدوات لأَحد الكاتَبات العَربيات في العَاصمة النَمساوية فيينَا ، كَانَ المَكانُ غَارقاً بهم ، الوَجوه ذَاتهَا رَوائح العَفن ذَاتهُ ، المَجوهرات هي هي ، الشُعور مَصبوغة و الأظافر مَطلية و الكاميرات مُتراشقة هُنَا و هُنَاكَ و الأضواء ساطعة .. أخ من الأَضواء و رَب الحَياة و المَوت لم يَقتلهم سوى الأَضواء ..

الأسَماء مُعلقة على كُل كُرسي ، و كُلمَا كَانَ اَسمُكَ في الصُفوف الأَمامية كُلمَا ازدادت المَصلحة و الكذب و النفاق ، برَأتُهم عندما كَذبت على نَفسي و قُلتُ ، رُبمَا من باب أنزلوا النَاس منَازلهُم ..

يَلعن أبو هَذه المنَازل التي هي أَقرب إلى المَزَابل .

دَخلت أستاذتنا ، صَفق لهَا المُنَافقون و المُنافَقات و المُؤمنون و المُؤمنات ، و بَدأ العَد التَنازُلي للكاميرات تَطلقُ مَا لَذَّ و طَاب من صُدور عَارية و مؤخرات مُتَرهلة ، و وُجوهٌ مُلونة ، و ابتسَامَات مَاكرة ، كُنتُ أَجلس مَعهُم كُل شَخص على حدة ، و كل شَخص بهم يَشكو و يَغتابُ الآخَر

، و عندما أرى لهُم أَي حَفل يجَتمعونَ كَقطُعان النعام يتَبسَمون لبعَضهم البَعض و يتَبادَلون القُبلات ..

كَفرتُ بالذي صَنعَ لَهُم مَحفلاً و جعلَ لَهُم أبهة براقة و كاميرات لماعة تَلتقطُ مشَاهد مَكرهم و عَفنهم ، صَاحَ ضَمير بي : ما هَذا الذي يَجري !؟

لا شَيء أيهُا الضَمير مُجرد حَفلة نفاق ، تحلقَ حَولها أتباع هُبل و يَعوق و يغوث و نَسرى ..

بدأت تَقرأ أستاذَتنا من كتابها المُصطف به الكَلمات كما تصَطف أرجُل المُنافقين في الصَلاة ، و تَتَفاعل مع المُوسيقى التي تُعزَف كَي تَزيد حَرارة الدراما ، و تَخشَع الجُلود المُلونة للكلمات ، و تَقشعر الشُعور المَصبوغة للمُفردَات ، و إذا أنتَ فَهمت شَيئاً .. أقسُم لكَ أنني لم أفهم شَيئاً ..

تهطلُ من عَين الكاتبة دمعة ، و لكنها دمعة مَشوبة بالكُحل و المكياج ، تَمسَحُها بأطراف أصابعها ، تَرمُقها العيون التي تُسَبحُ بَحمد هَذا المجلس ، يتعاطَفونَ مع السيناريو فَتَعجُ

الأكُف بالتَصفيق ، تَصفيق من نَوع لم أَرهُ بَعد أن تُنهي أُم كُلثوم حَفلهَا ، تَصفيق من نَوع المَاركَات ، و كُلما كُنتَ مُتفاعلاً مع الكَلمات كُلمَا كُنتَ مُقرباً للأُستاذة ..

القَضية خَطيرة جداً ، كُتَاب بلا قَضية ، بلا وطن ، بلا قَلم ، كُل مَا بهم مُأجور و لكن لا تَعرف لمن ، الضَمير في مَحل خَبر مَفعول به ، سُخرية ما بَعدهَا سُخرية ، لم يَعُد كُتَابنا لهُم قَضية أبداً ..

فَأكبر قَضية هي نَفسهُ ، و حَياتهُ ، و مَسيرتهُ الفنية التي قَرفنَاهَا ، ملت العيون من رُؤية إبداع الكَلمات و النَتائج قد بيعت و لكن لمن و ممن ! .. لا أَحد يَعرفُ غيرهُم .. مُنَافقونا ..

عرض ، خُذ كَاتباً و احصل على قرطَاسية ..

مُنافقينا ..

رائحة أَفواهكم تَقتلُ فَأراً ..

تَعيشُ في قُرى بسيطة مُغلفة بالطيبة ، في أَماكن لم تُلوثهَا البهرجة و الحَضَارة ، في أَحياء مُحافظة و مُطبقة على تُراثهَا ، لا زالَ الخُبزُ هنُا يُخبزُ في البيوت ، السَمن البلدي يُطبخُ في القُدور ، مدافئ توقدُ على الحَطب ، البيوت طينية قَائمة على الحجر الأسود ، تنامُ هَذه البُقع الطاهرة التي لم تُلوث بالبريستيج على كتفها ، تَلتحفُ بالأسرار التي لا تَبلغُ عتَبة بيوتهم ، البساطة مُتشَابكة ككتُلة الصُوف ، تَدور و تتكورُ و تنحدرُ من كُل الأزقة ، مشَاهد الشَوارع المُحفرة و الطُرقات المُغطاة بجور الطين لهَا مُقتطفة النَجاة ، السماءُ ليست صَافية تُغطيهَا كابلات الكَهرُباء كَأنهَا تَلتهمُ ظلال المَارة ..

بَشَر من لحم و دم وُعدوا بالإصلاح ..

أَجسَادٌ على قَيد الأَحلام لا زَالت تَعيشُ في مَقبرة تُدعى الحَياة ، هَذه الحَياة التي لا يَستَطيعُ أن يحَيى بهَا من أيقظَ

ضَميرهُ ، كَي تَعيش يَجب عَليكَ أن تَبيعَ مَبادئكَ و أَخلاقكَ و ضَميرُك لحزب مَا أو دين مَا أو ضَمير مَا ، لم يَجد هَؤلاء المسَاكين مَا يَبيعونهُ ، فَأضحوا كبقرة مرقعة قديمة هَزيلة حُلبت حَتى المَوت و ذُبحت في يَوم عيد كَي تعلو منسف على شَرف أَحد مسؤولي البلد ..

إنهُ سيناريو تَجويعي حَقيقي يا هَذا !! ..

سيناريو عودة الاقطاعيين و لكن بطَريقة إبليسية تَفوق عقول الأَبالسة ، قبلَ أَي انتخَابات بَلدية أو بَرلمانية يَحومُ مُنافقونَا فَوقَ هَذه البُقع الطَاهرة كَمَا يَحومُ البَعوض فوقَ الجَلد السَليم ، ينَشرونَ جَواسيسهم يَتحسسونُ نَبضَ الشَارع ..

و لكنَ الشَارع من قَبل أربع سَنوات قد أَخذَ منكُم وَعداً أن يُرمم ، أو تُعَاد هَيكلة الأَرصفة ، أُو تُنبش قنوات الصَرف الصحي على نية إصَلاحهَا ، أو تنتهي كَارثة الأسلاك الكَهربائية المُخيفة فَوقَ المَباني المُتآكلة ..

وُعدنَا .. و كُل يَوم نُوعد ، و لكن بمَاذا !

بأن نَرى الوُجوه ذَاتهُا تَتَكررُ في كُل أربعة أعوام ..

وُجوهٌ مُصفحة بالظُلم فَاقت الظَلام بحد ذَاته ، جُلود لم تَرَ الشَمسَ يَوماً ، و لم تَسمع تَحطُم الأمعاء خَلفَ البطون ، و لم تَشتم روائحَ سَواق المَجاري التي تَفيضُ في كُل بَيت ، و لم تَأكُل من خُبز الحَي الذي يُخبزُ بالعَجين المَمزوج مع الأتربة و الغُبار ..

تلكَ الوجُوه المَصنوعة في معامل حُكوماتنَا العَربية ..

أشعرُ بَالتَعب و أَنا أَكتُب عن وطن فارغ منَ الصادقين ، مَتى نَعودَ إلى عَفويتنَا و نَقاء نَوايانَا ! ..

أَشعُر بالتعَب عندما أرى شباناً تُراقُ دمَائهم من أَجل تَاريخ بالَ عَليه الزَمَانُ عندما انجَرت مَثانَة الأَفكار القَذرة ..

كُل ثانية تَتبخرُ في تَلقيم التَاريخ لأفواه الأَدمغة العَربية ، كُل دَقيقة تَفنى في إشباع تُراث العَقائد لقلوبِ المُخدَرينَ طائفياً ، كُل سَاعة تضَمحلُ في إطعام الأَفكار القاتلة لبشَر هُم كَانوا سَادة ..

لَعمري إنهُ زَمنُ مَوت الضَمائر ..

في كُل لَيلة تُسدلُ السمَاء ضفائرهَا على أَكتاف بيوت من يَعتقدونَ بأن هُنَاكَ بيوت تَأويهم ، تتلمسُ جُوعهم بكف النُجوم ، تَتَحسسُ رجَفتهُم بعين القَمر ، لتستمعَ بينَ دَفتي جُدرانهَا عواءَ الفَقر و تَتذوق بينَ شقوقهَا مُلوحة الذُل ..

آه من الذُل ..

عندما يُشبعنا ضَرباً بكُل وسَائل القَسوة ، خَلفَ كُل مقود ذُل هنَاكَ سَائق مُسَابق فاسد عَفن يَقودُ بنَا نَحوَ الهَلاك ، و نَحنُ نَعرف بأنَنَا ذَاهبونَ معهُ إلى الهاوية ، و نكملُ معهُ المَسير رُغمَ كُل هَذا الهَلاك ، و مع أَنَا مُهلكونَ فَأنَنَا رَضينَا به ليسَ خَوفاً من الهَلاك ، و إنما خَوفاً من المَوت جُوعاً ..

جَائعونَ نَحنُ نمدُ أَكفُنَا لمُغتَصبينَا أن أَطعمونا من خُبزنَا الذي سَرقتموهُ ، و عندما تُوضَعُ في أَفواهنَا بَقايا خُبزهم ، كَانَ لزاماً عَلينَا شُكرهُم ..

جَائعونَ نَحنُ إلى أي حُلم يُخرجنَا من وَحل الوَهم ، من أَية قَضية تنتشلنَا من زَريبة الكَذب ، من أي هَدف يَسحبُنَا من مَزبلة التَاريخ ..

جَائعونَ نَحنُ لَهواء نَقي خَال من جعَجعة الخطَابات المُخَدرة ، لمَياه صَافية أنَقى من الوعود الراقية ، لسجَائر وَطنية كَي نَموتَ كوَطنيين ونَأكلُ من حَقلنَا و نشربُ من بئرنَا و نستنشقُ من عَليل جَونَا ..

جَائعونَ نَحنُ إلى مُصَافحة القُبور و اَحتضان المَوت و تَقبيل جَنبات اللحُود ، إلى شَواهد تَحملُ اَسماءنَا كَي يستَدلَ من يُحَبنَا على رُفاتنَا ، إلى شَتلة خَضراء تُسَبحُ لنَا عند رَبنَا ، إلى صَديق يَمرُ من فَوقنَا و يَدعو لنَا : رَحمهُ الله ، كَانَ صَاحباً صَالحاً ..

جَائعونَ نَحنُ إلى عُذوبة كَلام ذَاكَ الرَجُل حَينما وَعدنا : سَوفَ أُصلحُ لكُم كَافة المُؤسسات الحُكومية ، الشَوارع ، الأرصفة ، المعامل ، المخَابز ، المَزارع ، المَدارس ..

نعم هُوَ وعدنَا و نَحنُ مُنذُ أن وَعدنَا أبى بأن نَكون ، و نَحنُ ننتَظر الصَدى من المَدى ، اختفى المَدى خَلفَ هُتاف الشَعب عندما جَاعت الأَمعاء ، و اضمحلَ الصَدى من بعد أن اختارَ الشَعبُ القُبورَ مَسكناً لهُم ، و أمَا صَاحب الوَعد استلمَ وزارة في الإمارة ، لا نَحنُ رأينَا الوَعدَ و لا صاحب الوعَد ، و لا

نَحنُ فُزنا بوطن و لا بمواطن ، فَاقَ احتلالنُا كُل الاحتلالات حتى ضَاعَ كُل شَيء ..

لا زلتُ أقفُ هُناكَ أمَام عتبة الدَار في حوران ، أنتَظرُ أُمي حتى تُخرج لي رَغيفَ الخُبز من فُرنهَا ، أراقبُ سَاعَةَ البيت كَي لا أتأخر عن المَدرسة ، تُناولني إناءَ اللبن المُصَفى و الزَيتون و خُبز طَازج أشهى من تَحرير وَطن ، و كَأس من الشَاي بالزَعتر ، لا زلتُ هُنَاكَ أَقفُ أنتَظر الوعود ..

خَسرتُ أُمي و الوَطَن و رَغيفَ الخُبز و الوَعد ، و أَما مُنافقينا لا زَالوا يَرتفعونَ منَصباً فَوقَ جَماجم أَحلامنَا .

مُنافقونا ..

ارفعوا أثوابَكُم فالأرضُ طَاهرة ..

تُولدُ الأُنثى في مُجتمعاتنا خَالية من الأَمراض العقدية و الوَطنية و القومية ، أُنثى على الفطرة كَمَا سَمعتُ من جَدتي الحورانية ، أُنثَى كَقطعة الطَين ..

يَراهَا الأَهلُ فَيجُنُ جُنونهم ، وَجبة دَسمة للجَيب و الغَيب ، و كما كَانت تَقول جَارتي أُم رضوان :

ـ و لا في أَحن من البنَات ..

و إذا ارتَكبت البنتُ خَطأً، والخَطأُ مَرفوضٌ تَماماً في مُجتمعنا العَربي، لأنَ زَلة البنت جَريمة يُعاقِبُ عَليهَا الأَبُ ثُمَ الأَخُ ثُمَ الزَوجُ ثُمَ القَانون ، وذلك يكونُ على حَسب التسَلسُل الوراثي للمُجتمع الطبقي الأَبوي العُنصُري المُتخلف ، فَهُنَا أَسوقُ المَثل لجَارتي أُم جَابر :

ـ البنات هَمٌ الى الممات ..

تُربى الأُنثى في حجر وَالدَيهَا كَأنهَا مَلكةٌ في ظَنها كَي تَتَكَبر إن ظَلمهَا المُجتمع يَوماً مَا و تَقول :

ـ أنَا تَربيتُ في بيت أبوي كمَلكة .

ماذا سَوفَ أَقول عن أَحلام المَلكة ، و الله لم تُبقِ لهَا شَيئاً من عُنفوان الشَخصية ، وهَيبة التَكَبُر المُصطنعة ، نعم عجلٌ صَغير يُعلف في حَضيرة الجَهل و التَخلُف و من ثُمَ إلى مسَالخ :

ـ إذا أتاكُم من تَرضونَ دَينهُ و خُلقهُ فَزوجوه ..

و من قَال بأنَ المُجتمع يُطبق هَذه القاعدة ! ..

مُجتمعٌ بَنى أَوهَامهُ على التَطبيقات ، كَتطبيق سناب شَات و الفيس بوك و تويتر وآخر تَطبيق :

ـ شُوف لبنتَك عَريس قَبل ابنك ..

هَذا التَطبيق لن تَراه إلا في الوَطن العَربي ، أو تَركيب وتَطبيق ، وتَستَمر الحَياة بالنَفش والرَفش والنَفخ وكُل مَحلات التَجميل والزينة (شَغالة) ولله الحَمد ، فَعندنا ثَلاثة أَشياء تَعمل من غَير أن يُقطعَ رزقُهَا و هي في ازدياد كَمتاجر المُوبايلات وأدوات التَجميل و مَطاعم الشَاورما ..

فبنتُنا المَصون تُريد كُل شَهر هاتفاً جديداً ، وهذا أمرٌ عاديٌ من باب مواكبة العصر والزمان ، و في كَل شَهر عُلبة مكياج جديدة ، وهذا أمر جائز لأنَ مُفتيات الأزهر أفتنَّ بجواز المكياج القليل و من باب أن يَرانا غَيرنا بشَكل حضاري ، وفي كُل يَوم سَندويشة شَاورما لأنَكَ إذا أويتها إلى عُش الَزوجية فَيجبُ أن تَعرف بأنَ أكلة الكُبة لن تَراها إلا في بيت أُمك وسدر المنسَف سَوف تلتقط لهُ صُورة وتُعلقها على جدار بيت الضَيافة و تكتُب عَليها :

ـ الله يَرحم أيام الزمن الجَميل ..

ولتفرح يا جميل لأنَ النفاق أضحى مُكلفاً هَذه الأيام ، بل أغلى من (كيلو) لحمِ الضأن، و أغَلى من رَاتب الشَغالة الفلبينية ، و الله أَتيتُ إلى الغَرب ولم أرَ شَغالات في البيوت و لا غَير ذَلكَ من خَدم و حَشَم و أَكاذيب كُنَا نَراهَا في طَبقة :

البيت دَه طَاهر و حَيفظل طُول عمرو طَاهر ..

المُصيبة في عَمَليات التَدليع والتَدليل والتدليك التي تتَلقاهَا أُنثى هَذه الأَيام و كَيف يُحشَى في دمَاغهَا بأنَ بيت وَالدهَا خَير لها من ألف بَيت !! ..

ضَاعت إناثُ هَذا الزَمان بينَ الإفراط و التَفريط ، و تَراكمت مَلفات الطَلاق تَلعنُ بعضَها بَعضاً ، بسبب النفاق وعدم التبيان وكَثرة الكَذب ، والمصَائب تتولى إذا أنجبت طفلاً و تَفرقَ الزوجان ، من هُنا يَبدأُ سيناريو التخبطُ وتُسَلُ السيوف بين أهل الزَوج وأهل الزوجة ، والضَحية صَريعة مُتجمدة بَريئة لا تَقوى على الحَركة ..

قطعة لحَمية في الأَول و الأَخير هي ضَحية للفشَل الأُسري المُتشَدق بالروابط الاجتماعية ، ولو تَرى الروابط الاجتماعية الآن فوالله لا تَصلُح أن تَلفها بكرتونة هدايا ..

ترى الأنثى منذُ الصغر بأنَ هَذا الأب وَالمَلاك الذي لا يُردُ لهُ طَلب ، وأيضاً هُو لهُ رؤية أُخرى مُخالفة عن نيتهَا الطَيبة ، هُوَ يراها بأنهَا وَجبة دَسمة لَجيبه عند خُروجها من بَيته إلى بَيت الزَوجية ، إنهُ سُوق المهور والبَهرجة والتَكبُر والتخايل أمَام خَلق الله ..

المهر والبَيت والذَهب والحَفل والغداء ، كُلهُ على عاتق المسكين الذي دَخلَ الأبواب لا من النَوافذ ، هُم الذينَ علموهُ :

ـ من طَرقَ الباب سَمعَ الجَواب ..

هوَ لم يسمع الإجابة و إنما استلمَ وَرقة عَليها موافقة أن لا يُسدَ البابُ في وَجهه ، يُشَيد البَيت بأفخر أنواع الأثاث الجَديد، أليست هي عَروساً جَديدة ! ، و الكَهربائيات ذات الماركات الباهظة الثَمن و طَبعاً على مَقاس غُرور أُم العَروس ، هيَ التي بَعدَ أن يُغلقَ عليهما الأبواب سَوف تجلس بينَ نساء الحَي وتتحدث عن محتويات بيت بنتها العروس وتَنفشَ رَيشَها بينَ صَاحبات الإتكيت، والذَهب، آهٍ من الذَهب! يجبُ أن تعلم بأنَ التجهيز للعرس بكَفة والذَهب بكفة، ولو تزوجتَ ثَوراً لكَانَ أرحمَ لك ..

و يبدأُ العَد التنازلي لمَظَاهر النفاق ، الحَفل الأسطوري ، المَدعوين ، الكَعكة التي تُشبه القَلعة ، المجوهرات المُصطفة في صَناديق أغلى من الذَهب ، الفرقة المُوسيقية والضَيافة ، والزَفة ، فأمَا عَريسُ الغَفلة فقد وَضَع ميراث

العَائلة كُله في حَفل عرسه المصون ، لَيسَ من أَجل العَروس بل من أَجل الحُضور ..

بوفيه مَفتوح لمن هبَ ودب ، و مُطربٌ بفرقته المُوسيقية ، و(العَراضة) تَنتظرُ خارجاً ، والسَيارات يا حَلاوة ، والحَفلة شَغالة من جَيب العَريس وأهل العريس وعيون العَروس وأهل العَروس ..

بعد الحَفل، تنتظرُ حَاويات الطعام خارجاً ، والمَدينة تتضَورُ جوعاً وذُلاً ، وأمَا عَريسنَا بعدَ عام من هَذَا السيناريو فقد طلقَ وعلى خصرها طفل يَتشَاجرُونَ عليه في المحاكم ..

مُنافقونا، الحَفلة عَليكم ، وعلينا الدَبكة ..

مُنَافقونا ..

التَقطوا لنفاقكُم صُورة ..

على الطَرف الآخَر من هَذا العَالم هُنَاكَ مُدنٌ تَعتقُد بأنهَا عَلى قَيد الحَياة ، تَعتقدُ بأنهَا نَجت من دَمار مَا ، تَعتقدُ بأنَهَا تَعيشُ في قمة حَالهَا من رَخاء ومَحبة ، تَعتقدُ بأنَ رَغيفَ الخُبز هُوَ أكبرُ ثَروة ، تَعتقدُ بأنَ رَوابطَهُم الاجتماعية هي أنفس ما تَملُك ، وتُؤمن بالاعتقاد و الانقياد و العُبودية ..

إنهُ كَوكَب آخرٌ يُسندُ بُؤسَهُ على كَتف كَوكَبٍ يُسَمى الأرض ، كُويكبٌ لم يولد بعد، مُحاطٌ بهليوم طَبقة الانعزال كَي ينجو ببساطته ، في رَحم هَذا التُراب كَان ولا يزال تدُبُ عليه دوابٌّ يُطلقُ عَليهم مسمى البَشر ، ولكنهمُ تطوروا وأطلقوا عَليهم بَشَر، فَهُناكَ تَفاوتٌ في كاريزما الطَبائع وأجواف المَصانع، تُولدُ الأدمغة مُضمخة بالعَفوية، لكنها تُلوث بكُل عَفوية أو بكُل خُبث ، أُناسٌ لم يَعرفوا من الأحلام سوى نُورَ قَمر يتَقاسَمونهُ هم وغَيرهم من أشَباه أُناس ..

لا بُدَ أن نَتعثَرَ بالفاسدينَ أينما اتجهنا وأينما ارتحلنا في وَاقعنا وفي مَنامنا، لا بُدَ أن نتَصَافحَ معهَمُ، نبتسمَ لهُم، نَتحاور في رُبوعهم ونَهُز رُؤوسنا رضىً لمُخططاتهم ، لا بُدَ أن نَكونَ كَما يَكونون ، ولكن من أَجل مَاذَا ! ..

من أَجل أن نَحيا ..

كَفرتُ بالحَياة ذَاتَ مَجلسٍ يَضمُ وجوهاً لو غُسَلت بماء الكَوثَر لما طَهُرت ، هي الوُجوه بالذَات عندما ألمحها عن بُعد أشعُرُ بالغَثَيان ، أُصَابُ بحُمى الفَسَاد ثَلاثة أيام، أرقي نَفسي بآيات من الذكر الحكيم من أجل أن يَزول شَبحُ ذَاكَ المُتلون، كَنزلة بَردٍ تُنيخُ بمفاصلي تَرفعني حُمىً و تُنزلني ألماً، وأُوشكُ أن أَموتَ بسَكتة قَلبية مُباغتة من جَراء رُؤيتي لهَؤلاء المُتصَنعين، على مشَارف الثَلاثين تُسعفني الكَلمات والسُطور كي أنجو من لعنة الوُجوه الدَاشرة، أختلي بقلبي كَي لا يلوَثَ ما تَبقى من طُهري، ففي عُزلتي اكتشَفتُ أنَ النَجسَ ليسَ لهُ أيةُ صلة بأعضَاء الجسد ، النجسُ كناية عن العُهر الفكري الذي يُلوثُ كُلَ مسَام العقل ويُمرغُ ضمير

ويسَلخه عن إنسانيتهُ، بتُ أقتنعُ قَناعة تَامة بأنَ الإنسَانَ لا يَموتُ قدراً و لا قضَاءً ..

و إنما يَموتُ قاهراً أو مَقهوراً ..

هَذان سَببان كَافيان بأن تُقنع فيهما أكبر حمار على وَجه الأرض بأنَ المَوت انتَحاراً أشرف منَ المكوث على كَوكب احتلهُ أكَابر المُنافقين النُجس ..

تَلوثَت البحار والأَرض والأجواءُ بهم، وحَتى بعد مَمَاتهم فان لهُم تماثيل جاثمة في كُل مَدينة وعلى باب كُل قَرية، أسماؤهُم تتربع في كُل زُقاق وعلى مرأى كُل شَارع، أشباح تتجولُ بماضيها على أرصفة مُستَقبلنا، يُلاحقوننا بكُل وسَائل الذُعر أينما كَانت وجهتنا، لن ننجو من وجوههم المُكررة أبداً، نَراهُم في الكُتب الدراسية من بَداية أن ننطق بأول كَلمة حتى يموتَ الأمل فينا ..

الأمل حَالة غَير ملموسة نَحنُ خلقناها وجعلناها آلهة حسية كي نَطرد شَبحَ المَوت القَسري من قُلوبنَا، تَموتُ بنَا اللحظة في أول لقاء إقصاء، تُكونُ للإنسانُ طُفولتهُ التي لا يَرغب

بالعَودة إليها ، و لن يَنجو من براءتها ذَات المخالب الفانية ..

و مع ذَلكَ تَموتُ اللحظة وتَفنى الطُفولة لأنَنا رُبينَا عَبيداً مُروضينَ على قَتل كُل مَا هُو جمَيل في قُلوبنَا، النَبضَات كَرسائل الذَاكرة تماماً، بل كَلَقطة كَامرة تَوقَفَ عَليهَا الزَمنُ منذُ الطُفولة، هُنَا تُدرُكَ تَمَاماً بأنَ هَذه الحَياة كحذاء مُهترئٍ لا يَصلحُ انتعاله صَيفاً و لا شتاءً، أضحت الفُصول جَميعُهَا مُتشَابهة فلم نَعُد نَشعُر ببرُودتها ولا حرهَا بَسبب الظُلم الذي أَوصلنَا إليه السَادة المُنافقين ..

الضَوءُ جَريمة، النقاءُ كَارثة، ذُو الوَجه الوَاحد مُتآمر، يد الخَيرة شَريرة، المَشي بجَانب الجدار تَجسس، و أنَا و أنتَ ضَحية على كَوكب العضَلات المَفتولة التي عَطلت العَقل عن الدَوران، هُم الذين قتَلوا العُلمَاء سَابقاً عندما أُكتُشفوا بأن الأرض تَدور، وهَا هُوَ الزَمن يَدور ويَدور وتتكَرر التُهم والمَذابح والمجازر بأسمَاء قَرفناهَا كالوطن والقَومية والدين والعَرض ، كَيفَ لأُمة تُقاتلُ عن عرضهَا ومُؤخراتهَا مَكشُوفة للصَديق والعَدو ! ..

مُؤخَراتَ تَفوحُ منهَا أدخنة مَسروقاتنا وحاضرنا ومُستَقبلنا، أضحت حياتُنا مَعقودة بمؤخرة رَجُل مَا، لقد قَطع أدبار غَيره حتى وَصَلَ إلى هُنَا، فَهذه مُؤخرة لهَا عَظمة الاسم والوصف والمعنى والسُلطان، تَعلمنا في مدرسة الحَياة :

ـ أنَ لا شَيء يَأتي من غَير مُقابل ..

هَذا صَحيح، فنحنُ والوَطن والغُربة والكُربة وأمراضنا النفَسية والجسَدية ثمنٌ دَسمٌ لأجل كُرسيٍ ما ولمُؤخرة رجل مَا ..

طُفولتي بماضيها، أقفُ أمامَ بَوابة المَدرسَة قبل أن يُفتح الباب بعشرين دَقيقة، أخشَى أن أتأخر، الشتاء والبَرد القارص يُحيطني من كُل جنبات الحماية في باحة المَدرسَة، نُعدُ على الأصَابع الواقفين على الأعتاب نَرتجفُ خَوفاً من مُستَقبل لَيسَ لنا، حَقائب محشَوة بالدَفاتر والكُتب والوظائف المنسُوخة وسَندويش الزَعتر ..

نُفتشُ عن الأظافر قَبلَ الدُخول والأحذية النَظيفة والمناديل الوَرقية كَأننا قد سُحب منا إكسير الكَرامة، بل بلا كَرامة،

ونُضربُ على مؤخراتنا بالعصى من غَير أي ذَنب، الذَنب الوَحيد بأنَك ابنُ فلان الرَجُل البَسيط الذي لم يتلوث بنفاق هَذا الكَون ولا بالبهرجة و لا بالمناصب ..

ندخلُ واحداً تلوى الآخر نرتجفُ برداً من مشهد الرُعب الصَباحي ، يتأخرُ عَريف الصَف، يدخُل بَعد دُخول المُعلم، يبتسمُ للمُعلم ويتبادلان النظَرات الرقيقة لأنهُ هُو ابنُ فُلان، أحد لُصوص البلد وتُجار البشَر ..

مُنافقونا، فلتعذروا قلمي ، فالحبر دَساس ..

مُنَافقونا ..

كسر اللهُ يداً رَفعَتكم مقاماً علياً ..

العُلو حالة تَراجيدية يتَسَابقُ إليهَا أهل الحَل والرَبط، كباشٌ وثَيران تَحسبُ أن لحَمها لحم ضَأن، وفي الحَقيقة، كَيفَ للحمٍ مَجبول بالحَرام أن يقفَ على مَأذنة الحَي ويُنادي بنَا :

- حَيَ على الفَلاح !! ..

فَلاح شَابٌ سنهُ بسن هَذا المسجد و بَعد وُجود هَذه الكَنيسة بخمس عَشرة عاماً، أنجبتهُ وَالدتهُ عندما كَانت تُقرعُ أجراس الكنيسة، و في الوَقت ذَاتهُ قَررَ أهل الحَي بناءَ مسجد الرَحمن بجانب الكَنيسة ..

كَانَ المَوتُ يَنتظَر وَالد فَلاح وهُوَ عَائد من سُوق الخُضَار، رَجلٌ بَسيط يَحملُ بيمَينه أَكياس الخُضَار والفَاكهة ونصف كيلو من الكبدة التي اشتراها لزَوجته الحَامل، وفي يسراهُ حَلوى الخَلاص ومَشروبات الفَرح بالمَولود الجَديد، عاملٌ بَسيط في إحدى المُؤسسات الصناعة التابعة للقطاع الحُكومي، فَإذا بسَيارة لأحد قُطاع الطُرق في هذا البلد

تَرتطمُ به لتوقعهُ أرضاً طَريحاً مُغسَلاً بدمائه، المُصيبة بأنَ مَا يُسَمى بالأمل لا زال يَنبض لو لا أن أدركهُ من دهسهُ لنجى من الموت ..

و لكنَ للهُ حكمة في ذلك، يَموتُ الضعاف لتَرى الأمة مَلامح المُنافقين و المُفسدينَ في الأرض، ألم يَقل اللهُ عنهم :

ـ إنَ المُنافقين في الدَرك الأسفل من النار ..

نعم إنهُ قد قَال ذلكَ، واللهُ أعلم بهم، ونحنُ أيضاً نَعرفهم، ونَخدعُ أنفسَنا بالتَبسُم لَهُم والتَودد لمجالسهم، حتى أصبحَ الصرصارُ حُوتاً لا يَقوى عَليه أحد، لم أعد أقوى على مُداراتهم، قواي لا تتحملُ مُشَاهدتهم، عَزفَ قلمي عن الصَمت عند رُؤيتهم يَتسابَقونَ إلى الدُنيا يُريدُونَ أكل الأخضَر واليابس، أوراقي مُتعطشَة لَنشر وَسخهم على منشَر السُطور ولكن أتمنى أين يُشَاهدُوا غسيلهم المُتسخ من نَافذة :

ـ هَذا الكلام لكِ فلتسمعي يا جارة ..

على مَا يبدوا بأنَ الجَارة أحكمت آذانها بفلينة أو بورقة فساد كي لا تستمع ولا تَرى ولا تتكلم، نعم هُم منهمكونَ بجمع ما هب ودب من خطايا وآثام ، ونحنُ أيضاً منهَمكونَ من أذاهُم و لسَانهم الطويل وأفعالهم النَجسة وتجسسهم على الخَلق بنية الإيقاع وجر البلاء ..

يَموتُ الرَجلُ البَسيط على أعتاب الحَياة جائعاً يَحملُ فَرحة وخُبزاً وخُضَاراً إلى لَحده و تَنقلبُ الفَرحة بجنازة تَبكي الزَوجة على فأل الشَر الذي لَحقَ بهَا، يَمشي القَاتلُ في جنازَة المَقتول في اليوم الثَاني، و يُذبحُ عن رُوحه شَاة يُأكلُ منها فُقراء الحَي، وتطهو لنا الحياة وَجبة الفقَر والذُل على حساب سَعادتنا المُرقعة بالهُموم ..

يكبُرُ فَلاح يَتيماً، ينشَأُ جائعاً فقيراً، تَكسُوهُ ثَياب الذُل والمهانة، و قاتل وَالدهُ يَرمقهُ بَين فَينة وفَينة، يُرفعُ بيت الله بأموال أولاد الحَرام والمُبغضين، ينامُ أيتامُ الحي جياع لا يَجدونَ ما يَسدُ رَمقهم وبيوت الله تُبنى بالطُوب النَفيس وتُرفع الصَوامع بالصُلبان الذَهَبية ..

جُوع يَزحفُ من كُل منَافذ المَدينة، جُوع يَجلدُ الكَبير قَبل الصَغير، الاقطاعيونَ مُنتَشرون في الأَحياء كالذُباب، والمُهمة الرَئيسية هيَ الأذى ..

المَرض النَفسي الذي لم يَنجو منهُ الإيقاع بينَ الناس كَي يُشَار لمُنافقينَا بأنهَم أهل الحَق وأَحبائَهُ، لو أَطلع أهَل الباطل الذينَ وَافتهُم المنية على مُنافقي هذا الزمان لمَاتوا فَوقَ مَوتَتهم مَيتةً أُخرى ..

كَيفَ لي أن أَقفزَ خَلفَ العبارات الأَدبية من غَير أن أذُكر قَليلي الأدَب، و أمَا فَلاح كَان يَموتُ جَوعاً ويُحرمُ من المصروف اليَومي بَسبب خَطأ قَدري سَببهُ ابن حَرام ..

فَبينما يُمدَ المسجد بالسجاد الأحمر وتُعلق الثُريات كَانت أُمهُ قد أخرجتهُ من المَدرسَة لكَي يَعمل ويسُد جُوعَهم و يُسندَ كسرهم وفَقرهم ..

اكتمل بناء المسجد وجُددت صُلبان الكَنيسة في الثامن عشَرة من العُمر ، سُئل فلاح، لماذا لا تُريد أن تَذهَب إلى افتتاح المسجد ! ..

نَظَرَ إلى المأذنة الشَامخة التي تُجاورُ بيتهُ كَأنهُ يُريد أن يَقتصَ منهَا، شَاهدَ السَماء بعَينَين حمراوين مُتشققتَين، تَمعنَ بالنَوافذ المُذهَبة المُزَركشَة التي تَكفي لإشَباع قَبيلة، في قَلبه ثَأر قَديم على من جَعلوا دين الله مطية للوجاهة والنفاق :

ـ عندما كُنتُ جَائعاً أنَا أُمي أينَ كَان أهل هَذا الصَنم !؟ ..

كَانوا يُجالسُونَ بَعضَهُم البَعض، يَغتابونَ أهل الاستقامة من العَوام، يَحفرونَ للضُعفاء قُبوراً لدفنهم قَبل أن يَذوقوا حلاوة النُور، يَقلبونَ الحَقَ باطلاً والباطلَ حَقاً كَمن حَرفَ التَوراة والانجيل، فليسَ من الضَروري أن تحذَفَ حَرفاً من القُرآن وتُزيل جُملة كَي يُقال عنكَ أنكَ مُحرِّف !! ..

يَكفي أن تفقه من القُرآن بأنَ الجَنة لكَ وَحدكَ ولمن شَابهكَ من مُنافقين، وأن لغَيركَ جهنم وبئسَ المَصير، في الحَقيقة أنَت لَست مُحرفاً لا والله ، بل مُنحرفاً أخلاقياً وخُلقياً ورُوحياً، أنت بحاجة إلى طَبيب نَفسي أو مَصَح عَقلي كي تُشفى من مَرض الاقصاء و فَيروس :

ـ أنتمُ ، غَيرُنَا نَحنُ ! ..

ومن أنتمُ ومن نَحنُ؟ هَل سَقطت من السَماء نَبياً بينما غَيركُ أتى من خَلف البقَر أيُها البَقرة العَقور! نحنُ أنتم أنتُم نَحنُ رُغماً عن أنف كُل إقصائي ..

مُنافقينا، جَعل اللهُ الجَنة داركُم و سَقر قَراركم ..

مُنَافقونا ..

احزموا أمتعتكُم فقد اقتربَ الرَحيل ..

بينَ منطق لا يُفقه ، و فقه لا يُنطَق ، تَضيعُ المَبادئ في زَريبة الكَبارية إذا صَحَ التَعبير ، تلكَ الأَشباحُ التي عَلقنا عَليهَا القَاعدة التَالية :

ـ من لَيسَ لهُ كَبير ، لَيسَ لهُ تَدبير ..

أنَا لا أقصد هُنا عن رَب الأُسرة من جدٍ وأب، وإنما عُلب السَردين التي تُزين وَاجهات الرَأي والرَأي الآخر، أي جماعة مجالس العقد و الحَل حللَ اللهُ رقابهَم ورقاب من أقنعنا بهم، لَفيف الهَياكل اللحمية المُشَربة بالسمن البلدي وخُبز التنور وحَليبَ الماعز، الرُكن المَوهُوم ذُو الجُدران الخُلبية الصدئة المُرممة كَي تَبقى قلاعهم مُحصنة بالدَسَائس والمَكر، كما تَقول أُمي :

ـ في كُل حَي في كَلب جعاري .. أي مسعور ..

دَائماً لكُل سُؤالٍ جَوابٌ كُنتُ أبحثُ عنهُ بالسر والكتمان : من الذي أفلتَ عَلينا هَذه المُخلفات المَسعورة كَي تُحكم فيما شَجرَ بيننَا ..

تمسَكتُ بالذَاكرة جَيداً ذَات الخَلايا الخُلبية، حتى عادت بي إلى أرض حوران حيثُ درعا البلد مَسقط رَأسي، في تلكَ البقاع التي يُخبأُ بهَا الثَري قرشَهُ كمَا تُخبأُ الحَائض دَمَها، تَتَربعُ مَملكات عدة يتَوارثهُا قُطاع الطُرق من كُبار الحمَايل أو بمعني آخَر وُجهاء العَائلات الكَبيرة ..

الوَجاهة لهَا شُروط وأَعظم شَرط أن يَكونَ صَاحبَ الوَجه الصَبوح إقطاعي ابن إقطاعي مُتوارث فن اللصُوصية من حَرامي لحَرامي، والشَرط التَالي أن يَكونَ أخطبوطاً فَحلاً لهُ جُذُور وعَلاقات تَحتَ الطَاولة وفَوقها، وفي النُور والظُلمة، فَالظُلمة هُنَا مَحكومة عليه بعدم نَومه واستَقراره النَفسي، وأهم من ذَاكَ كُله أن يَكونَ موالياً لأية حُكومة تَأتي أو تَذهَب من أجل عيون مَصَالحه وثَروته وعَرشَه المُتوج بالوَجاهة، فعلى كُل حَال هُو إن دعوتهُ يُريد جَاهاً وإن لم تَدعُهُ يُريد جَاهاً ..

المَجلس مُدرجٌ بالسجاد والبُسط، والجُدرانُ مُضَرمة بالسيوف والصور، فمنذُ أن عُلقت سيوفنا في مجالسهم أصبح رَأينَا مَكسوراً وأنفنا مَشروماً، لَيسَ فقط السيوف، بل حتى أعناقنا وآمالنا وأحلامنا هي أيضاً تَحت رَحمة رَأيهم ومشُورتهم، كُنتُ دَائماً أحلُم أن أبني اسمي من غَير إضافات أو بهارات، أتشَبثُ ببناء ذَاتي من غَير منة لي من أحد، أصنعُ المُعجزة بقلمي أو ريشَتي أو علمي مُنسَلخاً من هَذه الأبهة الأبوية الطَبقية المُتخلفَة المُنحلة المُتآمرة على الإبداع والعَقل، إنهُ عَالمهُم المُهترئ المَبني على المحسوبيات وهَذا ابن فُلان مُقدم على ابن فُلان، لأنَ ذَاكَ ابنٌ لمُوحلٍ بالمَال بَينما الثَاني ابنُ فَلاّحٌ بَسيط يَجني تَعبهُ من عَرق جَبينه يتحسس مَفارق الحلال خَوفاً من تَأنيب الضَمير، والخُروج عن محور الفَطرة التي رُبي عَليهَا ألا وهي :

ـ مخافة الله ..

مَخافة الله نَراهَا على أبواب البيوت، جداريات مَنحوتةٌ من صُخور البازلت، أو من قَوالب الجبص الأبيض المَطلية

بألوان عدة كَي تُخفي آثار ظُلمهم وجَورهم، آياتٌ من القُرآن الكَريم تَعتلي كُل مَنزل :

ـ هَذا من فضل ربي ..

ـ لأَن شَكرتُم لأَزيدنكُم ..

ـ إنَ الله يَرزقُ من يَشَاء بغَير حساب ..

و ما إن فُتح حَديث الحسَاب كُل من عَليهَا يَهرع إلى النَوم، بحُجة أنَّ لديه عملاً في يَوم غد، فعندما يَخرُج الظَالم عن نطَاق حدُود الله، يُرسلُ اللهُ لهُ ظَالماً كَي يَضَع حذَائهُ على عُنقُه ..

أذكُر بأنَ مُفتي حَوران أمضَى جُلَ عمله في الدَعوة كَي يُعيد الرجال حَق الأخوات في ما يُسَمى بالميراث، فَالظُلم مُنتشر يَسري في العُروق الداكنة كما تَجري مياه الصَرف الصحي في القنوات، أربعونَ عاماً والشَيخ يَدعوهُم أن يَعودوا إلى جَادة الصَواب، يُخوفهم من عقاب الله وغَضبه، يُحيي بهم بذرةَ الإيمان والنُزول تحتَ أوامر الرَحمن، يَخطبُ ويَدعو

ويُشَيد بيوت الله بالحكمة والمَوعظة الحَسنة، على لسانه قَولهُ تعالى :

ـ يُوصيكُم اللهُ في أولادكم للذَكر مثلُ حَظ الأُنثيين ..

تختبئُ الوجوهُ المُجحفة بالجور والسَواد في دثار غُترهم، يَلتحفونَ العُبي المُطَرزة بأكل حُقوق أخواتهم، يَتخفونَ خَلفَ بَعضهم البَعض حتى لا تَتراشَقُ عَلى ضَمائرهُم صَواعق الله وغَضبه، إذا فاقَ أحدهُم الخمسين عاماً يَحج بيت الله الحَرام، يَعودُ من الحج كَيوم وَلدتهُ أُمهُ، يَغفر اللهُ جميعَ الذُنوب إلا أن يُشرك به شَيئاً، تَنتهي قَضية التَركة والميراث عندما يُطلقونَ على الظَالم : الحَاج فُلان الفُلاني ..

يُعاقبهُم اللهُ بالقانُون الوَضعي، يُقرُ مجلس الشَعب القَرار الذي اتخذَهُ الشَعب تَحتَ عنوان :

ـ للذَكر مثُل حظ الأُنثى ..

تتراكم القَضايا في المحاكم، تَثورُ تلكَ المُضرمة بالهَيبة، وتنتفضُ بوجه هَذا المُجتمع الكاذب الطَبقي الأبوي الذُكوري العُنصُري المُتخلف كي تأخُذ حقها وزَيادة، يَخرجُ هَذا

القَرار بَعد وفاة مُفتي الميراث، يَتكتلُ الوُجهاءُ في مجالسهم يَحاولونَ أن يَجدوا حلاً لهذه المُعضلة، يفلتونَ مَعارفهُم وكُلَ طَاقاتهم ولكن المُحاولات تَبوءُ بالفَشَل ..

تَبقى حَوران حَصينة مُحَصَنة بالعَقل لأَنهَا أرض الأنبياء و العُلمَاء والصَالحين، إنَ هَذه البلد الأَمين تَنفثُ خَبثهَا كما يَنفُثُ الكير الحَطب، وتَدورُ الأَيام لأرى الوُجهاء في كُل أصقاع الأَرض بَددهُم المَرض وأذلهُم الفَقر وأَعادهُم سَواسية كَبَقية خَلق الله، فَلا تَضَعوا أُنوفَكُم في فُوهَة مدفع القدَر ..

مُنافقينَا الوجهاء ، اكذب كذبة واحصل على عباءة .

مُنَافقونا ..

أمَا أتعبكُم التَنكُر ! ..

أشعُر بدنو الأَجل، أشعرُ بأنَ المَوتَ يُلامسُ طَيات وَجهي، يَبوحُ لي أن قد حَانَ الرَحيل، يُسعفني بأن تَجهز لَيوم اللقاء، هُنَاكَ حيث :

- يُمَّة و يَابَّة ..

حَيثُ يَلتقي الحَبيبُ بالحَبيب، لتَجتمعَ الأَرواح في فناء البَرزَخ المَشهود، تَحتَ التُراب حَيثُ لُحود الصادقين التي يَتدفق في قعرهَا النُور، حَيثُ لن أَرى لا مُنَافقاً ولا كَاذباً، لا أَميراً ولا وزَيراً، لا شَيخاً ولا مُطراناً، لا مُلحداً ولا مُؤمناً، لا دَجالاً ولا مُشَعوذاً، لا وَجيهاً ولا مُختاراً، لا مُتكَبراً ولا مُتكرراً، لا دَيكاً ولا حماراً ..

هُنَاك حَيثُ أَطوي سَيلَ حبري في لُحود الدَود، أُشعلُ عظامي للفناء، و أُقدمُ لَحمي للوباء ..

إنهُ المَوت، أَرحم بَكثَير من مخالطة الجَواسيس الماكرة، مُضَيعي أَوقاتهم في مُراقَبة النَاس وفَضح أعراضهم، المَنية

أُفضلُهَا وأطلُبها أفضل من أن أتشَردق كُل يَوم بأهل المظاهر أصحاب البريستيج الشَاهق، المُتطفلينَ الذينَ بَنوا سَعادَتهم على أضلاع غَيرهم .

الأكفانُ أستنجد بنقائها مُتوسلاً بصفائها أن تُنقذني من كوكب الألوان والمُفردات السَاخنة والأسماء المَشبوهة التي نبتت من حَرام ..

أُريدُ مُغسلاً يَمنياً من حضرموت أرض الأولياء والصَالحين، رَجُلاً بَسيطاً رَحيماً إذا رَأيتَهُ ذكرت الله ..

أريدُ تابوتاً مَكشُوفاً من حديد أُحملُ عَليه يَوم تَحملُ كُلَ نَفس مَا كَسبت إلى بَارئهَا حَيثُ أودعُ السمَاءَ بوجه مَكشوف لا مُتبرج ولا مَنفوش ..

أُريدُ أن يَمشي خَلفَ جنَازتي الشَحاذون والمُتسولون والفُقراء والمُحتاجُون وأبنَاء الشَوارع ومن يَلتقطونَ طَعامهُم من المزَابل والحَاويات واليتامَى والثَكَالى والمَظاليم ..

أُريدُ أن يُصَلى عَليَّ في العَراء حَيثُ تَتلاعبُ نسمَات الهَواء، لا تُدخُلوني مسَجداً فَإنَ رَوائح المُنافقين تَخنُقني، ولا

تَصنعوا لي حَفلَ تَأبين فَإنَ أهلَ الوَجاهة مَا صَنعوا حَفلاً إلا لعَرض نفاقهم على حسَاب جُثتي ..

أُريدُ أن يُحفَر قَبر يُمَّة وأوسَدُ بجانبها، أعود إلى حُضنها، أُمددُ أسطُري بمُحاذاتها، أكتُبُ عبارات الشَوق في مسكنها، أرى النُور يتوسَدُ عَيناي وأَهذي بكُل مَواجعي وآلامي :

ـ يُمَّة، لماذا تَركتني لَكوكب مُغمس بمليارات المُنافقين !؟ ..